شرح دعای کمیل*

میرزا ابوالحسن لاری اصطهباناتی (۱۳۳۸ هـ ق)

تحقیق: علی اوسط ناطقی

درآمد

میرزا ابوالحسن بن اسماعیل لاری، معروف به محقّق اصطهباناتی، از دانشمندان بنام شیعه در قرن چهاردهم به‌شمار می‌آید که به علوم مختلف، آشنایی داشته و بخصوص در ریاضیّات، تبحّر داشته است و از ذوق عرفانی برخوردار بوده و به تصوّف، گرایش داشته است.

وی که نوهٔ دختری سید جعفر کشفی دارابی است، در سال ۱۲۵۰ق، در اصطهبانات فارس متولّد شده و به سال ۱۳۳۸ق، در همان‌جا وفات کرده است.

او در مدارس دینی شهرهای یزد، مشهد و اصفهان، نزد آقایان

* . در برخی فهارس نام این شرح «کاشف الاسرار» ذکر شده‌است.

محمدجعفر کرمانی و میرزا محمد رضا یزدی تحصیل و مدارج علمی را طی کرده است[1].

برخی از آثار و تألیفات او به‌ترتیب زیر است:

۱. حاشیه بر «تحریر اقلیدس» خواجه نصیر الدین طوسی.

۲. شرح «تشریح الأفلاک» شیخ بهایی.

۳. الحصن الحصین در شرح «البلد الأمین»، تألیف جدّ مادری‌اش سید جعفر کشفی.

٤. مطلع الأنوار، در عرفان.

۵. شرح دعای کمیل.

شرح دعای کمیل

دعای معروف کمیل، دارای شرحهای بسیاری است که در جلد سیزدهم الذریعة (ص ۲۵۹ ـ ۵۵۸) یازده شرح بر آن نام برده شده است.

شرح محقّق اصطهباناتی، یکی از آن شرحهاست که از محتوایی نسبتاً خوب و غنی برخوردار است و بعد از وفات او، تلخیص و قسمتهایی از آن، حذف شده، چنانکه در پایان نسخهٔ خطی مورد استفاده، آمده: «قد تمّ ما أفاده... وأسقطنا منه نبذاً یسیراً ممّا هو قلیل الفائدة».

---

۱. شرح حال میرزا ابوالحسن اصطهباناتی در منابع زیر قابل دسترسی است:

۱. أعیان الشیعة، ج ۲، ص ۳۳۶.

۲. الذریعة ج ۷، ص ۲۴ (ش ۱۱۴)؛ ج ۱۳، ص ۲۵۸ (ش ۹۵۳) و ج ۲۱، ص ۱۵۰ (ش ۴۳۷۴).

۳. ریحانة الأدب، ج ۵، ص ۲۳۶.

۴. مکارم الآثار، ج ۵، ص ۱۵۰۰.

۵. طبقات أعلام الشیعة (نقباء البشر)، ج ۱، ص ۳۵.

این شرح، پیش از این، دو بار در حاشیهٔ «زاد المعاد» چاپ سنگی شده است.[۱] دو نسخهٔ خطّی نیز از این شرح، در کتابخانهٔ دفتر تبلیغات اسلامی حوزه علمیه قم، با خصوصیات زیر موجود است.

نسخهٔ اول به شمارهٔ ۳۰۷ به خط محمدمهدی بن محمد شفیع بن محمدتقی موسوی کازرونی، تحریر شده در شوال ۱۳۲۳، نسخهٔ دوم به شمارهٔ ۵۱۸ به خط محمدتقی بن محمد شفیع موسوی ۱۳۲٤.

تصحیح این شرح، بر اساس دو نسخهٔ خطی مذکور و نسخهٔ چاپ سنگی انجام شده و منابع احادیث و اقوال، در پانوشت‌ها نشان داده شده است[۲]. مواردی نیز پس از جستجوی متعارف، پیدا نشد که فرصت بیشتری می‌طلبید.

در پایان لازم می‌دانم از دوست فاضل ارجمند، جناب حجة الاسلام صدرایی خویی و همکاران ارجمندشان در دفتر «میراث حدیث شیعه»، خصوصاً جناب حجة الاسلام قاسم شیر جعفری که در فراهم آوردن امکان تصحیح و رفع برخی مشکلات در تصحیح، مرا یاری دادند، سپاسگزاری نمایم و از خوانندگان فاضل و دانشمند، انتظار دارم که خطاها و اشکالات را با بزرگواری تذکّر دهند.

از درگاه خداوند رحمان و رحیم، برای روح مؤلف، رحمت و مغفرت، و برای خود، بخشش و توفیقْ خواستارم.

---

۱. الذریعة، ج ۳، ص ۲۵۸.

۲. دو نسخهٔ دیگر از این شرح، در کتابخانه ملی شیراز و کتابخانهٔ وزیری یزد موجود است و در آن دو نسخه، خطبه‌ای برای این شرح ذکر گردیده، که در نسخه‌های مورد استفادهٔ ما حذف شده‌است.

تصویر صفحهٔ اول نسخهٔ خطی شرح دعای کمیل

نسخهٔ شمارهٔ ۳۰۷ کتابخانه دفتر تبلیغات اسلامی قم

تصویر صفحهٔ آخر نسخهٔ چاپ سنگی شرح دعای کمیل

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

اشتهار هذا الدعاء الشريف بين الفحول وتلقّيه للعلماء بالقبول وظهورُ آثار الحق عليه وبهورُ علائم الصدق إليه كفانا مؤنة الاشتغال بتهذيب سنده وترتيب صدوره. فالمهمّ أن نقول:

أصل الدُّعاء ـ بالضمّ والمدّ ـ النداء، وعُرفاً: الرغبةُ إلى الله تعالى، وطلبُ الرحمة منه على وجه الخضوع والتذلّل.

وحقيقته استدعاء العبد من ربّه ـ جلّ جلاله ـ العناية به والمعونة لهُ. وهو من أعظم أبواب العبادة، وأجلّ ما يدفع به الآفات والبليّات، وأجدر ما يتنزّل به الخيرات، بل هو من العبوديّة بمكان، وله من العبادة شأن. وأناهيك في هذا البيان قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾[1].

والآيات والآثار والأخبار في فضله بل وجوبه والحثّ عليه والتحضيض به

---

١. الفرقان (٢٥): ٧٧.

متضافرة متوافرة، قال الله تعالى: ﴿اُدْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] وهو من شعار الصالحين، ودأب الأنبياء والمرسلين، ومقام الموحّدين والسالكين؛ لكونه مشعراً بالذلّ والانكسار، ومُظهِراً لصفة العجز والافتقار، وهو لا ينافي القضاء ولا يدافع الرضى، ولا يباين ماثبت بالعقل الصريح والنقل الصحيح من أنّه لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه، ولا تبدّل حكمته الوسائل، ولا تغيّر مشيّته المسائل، وأنّ الأقدار سابقة والأقضيةَ جارية و أنّ القلم قد جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، وأنّ المقدّر كائنٌ لا محالة، فإذا اقتضت حكمته وقوعَ أمرٍ أو لا وقوعَه فلابدّ من تحقّق ما اقتضته، والدعاء لا يزيد فيها ولا ينقص؛ على أنّ المقصود إن كان من مصالح العبد في دينه أو دنياه فالجواد المطلق لا يبخل به، وإن لم يكن من مصالحه فلا يعطيه الحكيم العدل.

ومن إيمان المرء أن يعلم يقيناً أنّ ما أصابه لم يكن ليخطأه، وأنّ ما أخطأه لم يكن يصيبهُ، وأنّه لن يصيبه إلّا ما كتب الله له وإن اشتدّت طلبته وعظمت حيلته وقويت مكيدته؛ وذلك لأنّ من المحقّقات في حاقّ التحقّق والمقرّرات في متن التقرّر أنّ جميع ما في هذا العالم ممّا وقع ويقع من الكلّيّات والجزئيّات من الأزل إلى الأبد فهو بهيأته وزمانه في عالم آخر قبل وجوده، والله جلّ جلاله عالم بالكلّ على ما هو عليه في الأزل، علماً إحاطيّاً إشراقيّاً حضوريّاً.

ويعبّر عن هذا المقام بالقضاء، وعن المقام الأوّل ـ أعني خروج معلوماته سبحانه إلى الفعل مفصّلة بحسب حكمته ومشيّته بحصول شرائطها وارتفاع موانعها كلّ في وقته ـ بالقدر.

وبالجملة: القدر تفصيل القضاء والقضاء إجمال القدر، وهما إنّما يكونان ويجريان بتوسّط أسباب وعلل مرتّبة منظّمة في جميع ما في هذا العالم كما قال

---

۱. غافر (۴۰): ۶۰.

تعالى: ﴿وآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ سَبَباً﴾[1] فعند اجتماع الأسباب والشرائط ـ أعني حصول العلّة التامّة ـ يجبُ وجوب المقدَّر المَقضيّ، وعند تخلّف شيء منها بقي وجوده في حيّز الإمكان، فالمقدّر والمقضيّ هو حصول الشيء بعد حصول أسبابه وشرائطه، بل المسبّب بدون السبب ليس بمقدور.

والحاصل: أنّ الأسباب والوسائط والروابط معتبرة في جميع أمور هذا العالم، فكما أنّ الله تعالىٰ جعل الغذاء موجباً للشبع والدواءَ شرطاً لزوال المرض وطلوعَ الشمس سبباً لضوء النهار، وهكذا جعل بعض الذنوب مغيّراً للنعم وبعضها منزّلاً للنقم وبعضها حابساً للدّعاء وبعضها قاطعاً للرجاء، وجعل الدعاء والطلب والسؤال واسطةً ووسيلةً ورابطةً في قضاء الأوطار والحوائج، وجعلها مفتاحاً للخيرات والبركات والاستكمالات والترقيات، فالعبد لابدّ أن يدعو حتّى يصل إلى مطلوبه.

ولم يكن ذلك خارجاً عن قانون القضاء السابق وناسخاً للكتاب المسطور، بل هذا هو مجرى القضاء والقدر؛ فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً هيّأ له أسبابه، وفتح له بابه، و وفّقه للدعاء والتوبة والطاعة. شعر بالفارسية:

چون خدا خواهد كه غفّاري كند　　ميل بسنده جانب زاري كند

ولأنّ الدعاء بأمر الله وتوفيقه، ومنبعثٌ ممّا انبعث منه القضاء، كان يقاوم القضاء ويردّ البلاء؛ وليس يقاوم القضاء من حيث إنّه فعل العبد وصادرٌ منه، فإنّه من هذه الحيثيّة ممّا يتحكّم فيه القضاء، مثلاً: إذا أمر الملك أحداً بضرب ولده فإنّ يد المأمور من حيث إنّه مأمور من الملك ويده يده، يتسلّط على ولد الملك ويتحكّم فيه، ولو كان من حيث هو هو فكلاً وحاشا أن يستطيع لذلك.

ثمّ اعلم أنّ الله لا يشاء ولا يريد بعبده إلّا ما يراه ويعلمه مستعدّاً قابلاً له

---

۱. الكهف (۱۸): ۸۴.

باستعداده الذاتي الغير المجعول، وسيأتي تحقيق الحقّ في ذلك.

والسرّ العقلي في الأمر بالدعاء بل في مطلق التكاليف: أنّ كيفيّة علم الله وقضائه ومجرىٰ قضائه وقدره غير معلومة للعبد غائبةٌ عن العقول، والحكمة الإلهية تقتضي أن يكون العبد معلّقاً بين الخوف والرجاء اللذين بهما تتمّ العبوديّة.

روي عن النبيﷺ أنّه لمّا قال: «جفّت الأقلام وجرت المقادير» فقيل له: ففيم العمل؟ قال ﷺ: «اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خلق له، وكلٌّ عاملٌ بعلمه»[1]. أراد بذلك أنّ الإنسان ميسّر في أيّام حياته للعمل الذي سبق به القدر قبل وجوده. وفي هذا الكلام ترغيبٌ وترهيبٌ، وفي قوله: «ميسّر دون مسخّر» تحذير عن الغرق في لجّة القضاء والقدر.

فتأمّل وتدبّر ولا تصغِ إلى ما يقوله أصحاب الجهالة والبطالة من أنّ المقدّر كائنٌ لا محالة، وأن لا أثر في الدعاء ولا فائدة! ﴿وَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[2] وأعرف قدره ولا تبذله لغير أهله لأنّه من الأسرار. وانتظر لزيادة الكلام في ما يتعلّق بالدعاء. ولنشرع في المقصود.

اعلم أنّ لجدّي الأمجد وسيّدي الأوحد ـ أطاب الله ثراه ـ تحقيقات رشيقة انفرد بها في سنابرقه[3]، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾[4].

والمستنتج منها: أنّ تمامية الدعاء بأربعة أركان: الداعي، والمدعوّ، والمدعوّ له،

---

۱. كنز العمال ۱: ۱۱۰ / ۵۱۱ و ص ۳۴۳ / ۱۵۵۵ عن علي[ﷺ] و ص ۳۵۸ / ۱۵۸۲ و ص ۳۵۹ / ۱۵۹۲ ولكن لم يرد في المروي «وكل عامل بعلمه» و في صحيح مسلم ۴: ۲۰۴۰ / ۸ ـ (۲۶۴۸) «اعملوا فكلّ ميسّر».

۲. الاعراف (۷): ۱۴۴.

۳. «سنابرق» في شرح «البارق من الشرق» ـ يعني شرح دعاء رجب، الخارج من الناحية المقدّسة على يد الشيخ أبي جعفربن محمد بن عثمان بن سعيد، المعروف مزاره في بغداد بالشيخ الخلافي ـ للسيد العارف جعفر الدارابي البروجردي الكشفي، المتوفّى ۱۲۶۷، فرغ منه ۱۲۵۳. الذريعه ۱۲: ۲۳۲ / ۱۵۲۰. يوجد منها نسخ في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي (۱۴۴۹۱)، مرعشي (۵۹۲۵) جامعة طهران (۱ / ۷۱۷۹).

۴. النور (۲۴): ۴۳.

والمدعوّ به.

فالواجب والمهمّ للداعي معرفة هذه الأركان الأربعة، بأن يعرف نفسه بالافتقار المحض والانكسار البحت والعجز الصرف، ويعرف مدعوّه بأنّه الرحمن الرحيم السميع البصير، ولا مؤثّر في الوجود إلّا هو، وأنّه مجيب الدعوات ومعطي المسئولات؛ ويعرف المدعوّ له، بأن يكون مسألته فيما يبقىٰ له جماله ويفنى عنه وباله، ويكون مطالبه على حدّه وقدره ومنزلته، ومآربه على وفق صلاحه ومصلحته، أعني يطلب ويرجو ربّه ما يليق بحكمته ويوافق رضاه، ولا يطلب فوق ذلك فيكون من المعتدين، والمشتملُ على ذلك الأدعية المأثورة عن أهل بيت النبوّة ومعدن الحكمة.

ويعرف المدعوّ به أعني وسيلته وبابه وواسطته وسببه إلى ربّه، كأن يعرف أن لا وسيلة له ولا واسطة بينه وبين ربّه إلّا اسمه الأعظم ونوره الأقدم ووجهه الأكرم المكرّم، فوّارة الرحمة، عين الحياة محمّد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

ويكون توجّهه إليه وبه على صدق النيّة وخلوص العقيدة، معتقداً أنّ الأبواب منسدّة إلّا هذا الباب، وأنّ من أراد الله بدأ به[1].

والمتكفّل لهذه الأركان الأربعة بغاية الفصاحة في الألفاظ، ونهاية البلاغة في الإيجاز قوله عليه صلوات الله: (اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ) فبـ«اللهمّ» يعرف المدعوّ وبـ«إنّي» يشير إلى نفسه وتعيّنه وهويّته وإنيّته، لكن لا من حيث هو هو، وموجود على حياله وله شأن من الشؤن؛ بل بما هو مفتقر محض وموجودٌ بالمدعوّ، قائم به، وليس صرفٌ ولا شيء بحت. على أنّ ملاحظة النفس والالتفات إلى مقام السائل وإثبات إنيّته وبعده عن ساحة الربّ الجليل وبينونته عن مقرّبي حضرته في بدء

---

١. في الزيارة الجامعة لجميع الأئمة: «من أراد الله بدأ بكم ...»

السلوك وأوّل الأمر وابتداء الدعاء ليس بذلك البعيد، بل هو إلى الطبيعة البشرية قريبٌ، بل لابدّ منه ولا مفرّ عنه.

وبالسؤال يُؤمي إلى غاية التواضع والتذلّل والتبتّل وعدم الخروج عن قدره وحدّه وطوره، وبما بعده يؤذن إلى الوسيلة والسبب بينه وبين ربّه.

ثمّ اعلم أنّ اسم «الله» اسم للذات الأقدس في مرتبة الأحديّة، وهو اسم له تعالى في مرتبة الهويّة المطلقة الغيبيّة، وهو أعظم أسمائه الحُسنى. ومن أسرار هذا الاسم الشريف أنّه ما من ذي حياةٍ إلّا وأصل هذا الأسم في الظهور الأوّل يكون جارياً على نفسه، وبه تروح روحه ؛ هذا.

ولكون هذا الاسم المبارك بهذه الدرجة من العظمة كرّر في القرآن المجيد إلى ألفين وثمان مائة و ثمان مرّة، فاعرف ذلك واضبطه إن شاء الله تعالى.

والسؤال هو طلب الأدنى من الأعلى، وإذا اقترن بالتضرّع والابتهال يسمّى دعاءً، كما مرّ إليه الإشارة ؛ ويكون بالقول والفعل، ويستدعي جواباً إمّا باللسان وإمّا باليد. ويقارنه بل يلزمه الذلّ والمهانة.

ولهذا يكون مذموماً إذا كان من المخلوق ومتوجّهاً إلى غير الله سبحانه، بل يعدّ من الكبائر؛ بل على حدّ الشرك بالله؛ لأنّ الله لا يرضى للمؤمن الذلّ والاستكانة،كما لا يرضاه لنفسه حيث أشركه مع نفسه في العزّة بقوله العزيز: ﴿وَ لِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وورد في الخبر: «إنّ كلّ ذنب يرتكبه المؤمن لعلّ الله يغفر له إلّا السؤال عن الخلق فلا يغفر له أبداً»[2] ونحوه أخباراً آخر.

---

۱. المنافقون (۶۳): ۸.

۲. لم نعثر عليه في المصادر المتوفرة لدينا.

ويكون ممدوحاً إذا كان من الله سبحانه ومتوجّهاً إليه تعالى، وكأنّ كلّما كان بالتذلّل والتضرّع أقرب،كان بالمدح أنسب.

ومن لوازم الدناءة والمهانة الإنابةُ وإثبات الإنيّة، وملاحظة النفس، والالتفات إلى مقام السائل، وبُعْده عن ساحة عزّة الربّ المسئول وجلال الحقّ المأمول كما هو، لإقحام إنّي وأنا ونحوهما مدلول؛ وهذا لبدو السلوك وأوّل الأمر وابتداء الدعاء معلول، ولأهل الذوق والمعرفة معقول، ولأهل السؤال والسلوك مقبول، كما سبق إليه الإيماء وهو غير مذهول.

قوله ﷺ : (بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) الرحمة : العطف والبرّ، والمراد هنا إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وهي مظهر الربوبيّة المطلقة وكمالها وبروزها، فإنّ الألوهيّة أعني الموجوديّة التامّة لاتتمّ ولا تظهر إلّا بالربوبيّة، والربوبيّة والتربية الكاملة لا تتمّ ولا تظهر إلّا بالرحمة الواسعة لكلّ شيء؛ ولهذا أردف اسم الذات والدالّ على الألوهيّة بصفة الرحمة في البسملة الذي لا يتمّ ولا يكمل أمرٌ إلاّ به[1]، وأردفه في مقام الحمد باسم الربّ فقال تعالى شأنه: ﴿اَلْحَمْدُ لِلٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ﴾ عالم العقول وسكّانها، وعالم النفوس وقطّانها، وعالم البرزخ وجلوسها، وعالم الناسوت وقعودها.

بعبارةٍ أخرى: حضرة الجبروت وحضرة الملكوت الأعلى وحضرة الملكوت الأسفل وحضرة الناسوت والملك بمجرّدها ومؤدّيها وعاليها وسافلها وجوهرها وعرضها وبسيطها ومركّبها غيبها وشهودها. وبالجملة كلّما في الوجود ممّا سواه ـ تعالى شأنه ـ داخل تحت رحمة الله ـ جمّت آلائه ـ مشمول لها.

ولتوضيح المقال نقول مستمدّاً من عنايته ورحمته: إنّ لله ـ علت آياته ـ رحمتين: رحمةً بها وجد ما وجد وجعل ما جعل وخلق ما خلق من الذرّة إلى

---

١. إشارة إلى مضمون الحديث المشهور «كلّ أمر لم يبدأ فيه بالبسملة فهو أبتر».

الدرّة، ولولاها لما كان الذي كان في قوس النزول، ورحمةً بها يتقرّبُ إلى حضرته مَنْ تقرّب، ويصعد إلى جنابه مَنْ صعد في قوس الصعود.

وبالمعنى الأوّل قال تعالى: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»[1] وبالمعنى الثاني قال تعالى: «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ»[2]، «إِنَّ رَحْمَةَ اللّٰهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»[3]، «فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ»[4]، «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً»[5] في الدنيا وزلاّتها، وفي القبر وحسراتها، وفي القيامة وظلماتها، وفي الصراط ومخافاتها، وفي النار ودركاتها، وفي الجنّة ودرجاتها.

ويعبّر عن الأوّل بالرحمة الرحمانية التكوينيّة كما اشتهر: «أنّ الرحمٰن وصف عامّ واسم خاصّ»[6] لا ينبغي إطلاقه على غيره تعالى، وعن الثاني بالرحمة الرحيمية التشريعية كما انتشر: «أنّ الرحيم وصفٌ خاصّ واسمٌ عامّ»[7]. وأهل المعرفة يلقّبون الأوّل بألقاب شامخة مثل: كلمة «كن»، والكافِ المستديرة على نفسها، والمشيةِ المطلقة، إلى غير ذلك؛ هذا.

وفي الخبر: «إنّ لله مائة رحمةً أنزل منها واحدةً في الأرض فقسمها بين خلقه، بها يتعاطفون وبها يتراحمون، وأخّر تسعاً وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة»[8].

---

١. الاعراف (٧): ١٥٦.
٢. البقرة (٢): ١٠٥، آل عمران (٣): ٧٤.
٣. الأعراف (٧): ٥٦.
٤. الأعراف (٧): ١٥٦.
٥. الأحزاب (٣٣): ٤٣.
٦ و ٧. مجمع البيان ١: ٩٤. وفيه: روي عن مولانا الصادق عليه السلام أنه قال: «الرحمن اسم خاص بصفة عامّة، والرحيم إسم عامّ بصفة خاصة».
٨. مجمع البيان ١: ٩٤. صحيح مسلم ٤: ٢١٠٨ / ٢٧٥٢ ـ ١٩، بتفاوت يسير.

ومِن رحمته الواسعة ستر العيوب التي لو علم بها أبواك لفارقاك، ولو علم بها امرأتك لجفتك، ولو علم بها جارك لأقدم بها على تخريب دارك.

ثُمّ إنّ الذي عليه الحقّ والحقيقة ـ آخذاً من أخبار أهل بيت النبوّة وآثار مواضع الرسالة ـ: إنّ حقيقة الرحمة ـ بكلا المعنيين ـ هي الحقيقة المحمّديّة والدوحة الأحمديّة. وكفى فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١]. والجمع المحلّىٰ باللام يفيد العموم، فمساقه مساق ربّ العالمين . والمفهوم من قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾[٢] أنّه تعالى اتّخذ الهادين أعضاداً وأشهاداً لخلقه؛ والمراد بالعضد الواسطة والشفيع.

وفي الزيارة الجامعة المأثورة: «أنتم الرحمة الموصولة»[٣] ـ بالله تعالى شأنه وتقدّست أسماؤه ـ فمحمد ﷺ وآل محمّد ﷺ هم الرحمة الموصولة الواسعة الجامعة بين الخالق والمخلوق، في إيصال نور الوجود و ضوء الفعليّة إلى الماهيّات والموادّ الإمكانية، ولولاهم لبقيت الكلّ في ظلمة العدم وغسق البطلان، ولَما خلق الأفلاك، ولَما نزل الخيرات والبركات، ومن هٰذه السعة في الرحمة يقول ويستصرخ يوم القيامة: «وا أمّتي» والناس كلّهم يستصرخون : «وا نفسي»[٤]. والنبيّ والوليّ هما لله تعالى اليدان المبسوطتان اللّتان ينفق بهما كيف يشاء.

فعلى هذا، الرحمة بمعنى المرحوم، وإضافته إلى الله تعالى لاختصاصه به تعالىٰ بمظهريّته له وكونِه مرآةً لجماله وجلاله، وأنّ من رآه فقد رأى الحق،

---

١. الأنبياء (٢١): ١٠٧.

٢. الكهف (١٨): ٥١.

٣. الفقيه ٢ : ٣٧٢، زيارة جامعة لجميع الأئمة.

٤. لم نعثر على نصه، و الموجود في سنن الترمذي ٤ : ٦٢٢ باب ١٠ «إنّ الأنبياء كلّهم يوم القيامة يقولون : نفسي نفسي، و النبي ﷺ يقول : أمّتي أمّتي».

و وُسعته لكلّ شيء باعتبار إحاطته وجامعيّته لكلّ كمالٍ وجمال وجلال، وأنّه النور الأعظم والاسم المكنون الأعزّ الأجلّ الأكرم الذي يحبّه الله ويهواه، وبه يستجيب دعاء من دعاه.

(وَبِقُوَّتِكَ) إلى قوله (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ) القوّة: القدرة، والقويّ: الغالب الذي لا يستولي عليه العجز والضعف في حالٍ من الأحوال، والجبر: الغلبة، والجبّار: العالي فوق خلقه، أو المتكبر المتسلّط.

هذه الفقرات الشريفة كلّها من وادٍ واحد، يشير إلى معنى، فأراد هو عموم قدرته وقوّته وشمولَ قهره وسلطنته وإحاطةَ هيمنته وجبروته لكلّ موجود على حدٍّ سواءٍ؛ فإنّ علّة المقهوريّة والخضوع والذلّة والديانة والمسكنة ـ وهي الإمكان ـ مشتركة بين تمام الأشياء، ونسبته تعالى إلى الكلّ سواء. وكيف لا يكون هو تعالى قاهراً غالباً وما سواه مغلوباً مقهوراً، والممكن ليسٌ محض، والواجب أيسٌ صرف.

وهاهنا نكتة أحبّ أن أنبّه فانتبه واستمع.

اعلم أنّ لِما سوى الله تعالى من مخلوقاته ومكوّناته ثلاث جهات: جهة صدورها منه تعالى وانتسابها إليه وارتباطها به، وجهة ذواتها وكينونتها، وجهة إضافتها في أنفسها ونسبة بعضها إلى بعض، ونسبة تكوّنها في قرونها وأدوارها وعوالمها ونشأتها.

وكلّ موجود من الجهة الأولى وماهو مظهر ومجلى لربّه الأعلى عظيم معظّمٌ كريم مكرّم؛ فإنّ الفحم إذا امتلى من النار يصير ناراً، والجسم بالرطوبة يصير رطباً وباليبوسة يصير يابساً، وإلى هذا أشار صلوات الله عليه: (بِعَظَمَتِكَ الَّتِي مَلأْتَ كُلَّ شَيْءٍ) وامتلئت بها وعاء كلّ موجود. و ورد في دعاء السحر: «اللّهمّ إنّي أسألك من بهائك بأبهاه وكلّ بهائك بهي ... إلى آخره»، إذ كلّ شيء بهاؤه و كلّ بهائه بهيّ،

و كلّ شيء آياته و كلّ آياته عظيمة، و كلّ شيءٍ أسماؤه و كلّ أسمائه كبيرة، و كلّ شيء جماله و كلّ جماله جميل، و كلّ شيءٍ نوره و كلّ نوره نيّر.

ومن الجهة الثانية وكينونتها وذواتها بما هو هو حقير محقّر صغير مصغّر، و إليه الإشارة بقوله ﷺ: ﴿وَبِقُوَّتِكَ الَّتِي قَهَرْتَ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ﴾ . و ورد في دعاء الصحيفة السجاديّة: «ولك العُلوّ الأعلىٰ فوق كلّ عالٍ والجلال الأمجد فوق كلّ جلال، و كلّ جليل عندك صغير،و كلّ شريف في جنب شرفك حقير»[1].

وأمّا من الجهة الثالثة فهو حقير من حيثٍ وعظيم من حيثٍ، مثلاً: الذرّة حقير بالنسبة إلى الفيل، والجنين حقير بالنسبة إلى المولود، وهكذا.

وأمّا في حدّ عالمه ونشأته وحياله، فهو إمّا صغيرٌ بالجهة الثانية وإمّا عظيم بالجهة الأولى.

فنقول: من آثار قدرة الله بَهَرَ برهانه، وعلائم عظمته عَلَت آياته: هذا الخلق العظيم الجسماني أعني الكرة المنضدة المركّبة من كُرات كثيرة محيطة بعضها ببعض، مختلفة جنساً ونوعاً، وكُدورةً و صفاءً، وكثافة ولطافة، ودقّة وغلظةً، وكمودةً وضياءً، المعبّر عنها بالعالم الآفاقي، من السماوات العلى والأرضين السفلىٰ.

أمّا السماوات فسبع، حَمَلَه الكواكب السبع السيّارة المشهورة المشتمل كلّ منها على أفلاك جزئيّة كثيرة، ويحيط بالسابع ـ أعني فلك الزحل ـ فلك عظيم مركوز فيه الثوابت الغير المحصورة، ويعبّر عنه بالكرسيّ، ويحيط به الفلك الأعظم فلك الأفلاك، ويعبّر عنه بالعرش، وعظمته ما شاء الله لا يدركها إلاّ الله، ولا يمكن للبشر الإحاطة بها؛ كيف؟ وكرة الأرض بما فيها وما عليها ـ من البراري والبحار والصحاري والقفار والجبال والأنهار والبلاد والأشجار والحيوان والعباد

---

۱. الصحيفة السجادية الجامعة، الدعاء: ۱۴۶ / ۴.

بتمامها وجملتها ـ لاتحسّ، ولا يكون لها قدر محسوس عند فلك الشمس، وفي جنبه وعظمته ذلك الفلك، بحيث إنّ الشمس مع كونها ثلاث مائة وستّة وعشرين مثل مقدار جرم الأرض، بكلّها تكون مرتكزة فيه كدرّة بيضاء في بساط أخضر منبسط على سطح الأرض، والأفلاك الأخر على القياس.

وفلك الثوابت مشتمل على كواكب لا تحصىٰ، أعظمها من المرصودة مقدار جرمها مائتان واثنان وعشرون مثل مقدار جرم الأرض، وأصغرها مقدار جرمه ثلاثة وعشرون مثل مقدار جرم الأرض، ومحدّب هذا الفلك مماسّ لمقعّر الفلك الأعلى، و ثخنه وغلظته ما شاء الله خارج عن طوق البشر.

ثمّ فوق ذلك الفلك الأعظم عالم النفوس، وفوقه عالم العقول المجردات التامّات القاهرات، مجالي ومظاهر لأنوار الله جلّ جلاله ممّا يقصر نطاق البيان عن وصف جلاله ويكلّ لسان التبيان عن نعت جماله ؛ هذا.

وأهل الانكليس اعتقدوا أنّ في كلّ كرة في كرات الكواكب الغير المحصورة مثل ما في كُرة الأرض، من البحار العميقة والصحاري المقفّرة والبلاد والعباد والأنهار.

قوله ﷺ: (وبوجهك الباقي بعد فناء كلّ شيء).

قد ورد في القرآن والأدعية والأخبار ذكر وجه الله الباقي كثيراً، بعبارات شتّىٰ حسب اختلافات المقامات، وقد تصدّىٰ لتوجيهه وتفسيره علماؤنا الأخيار من أهل التفسير والأخبار وأهل الحكمة والاعتبار. وأحسن ما وجدنا منهم ـ طاب ثراهم ـ في كشف الحجاب عن وجه جماله، وأصوب ما ورد عنهم في رفع إعضاله وحلّ إشكاله، ما أفاده العالم العامل المحدّث الكامل في كتابي الصافي والوافي، حذو ما سمح به صدر الحكماء، وملخّصه:

إنّ المراد بوجه الله الباقي: ما يواجه به الله سبحانه ويتوجّه به إليه تعالى، ويكون سبباً متصلاً بين الله وبين خلقه وحبلاً متيناً يتقرّب به إلى الله جلّ شأنه، من نبيّ أو وليّ أو وصيّ أو عقل كاملٍ وفيّ أو مطيع لله ولرسوله؛ فإنّه وجه الله الذي

يؤتىٰ منه ويواجه الله عباده ويخاطبهم بواسطة[1] وفي الجامعة المأثورة: «من وحّده قبل عنكم،ومن قصده توّجه بكم»[2].

وقد يرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[3] إلى الشيء، فيكون معناه أنّ وجه الشيء لايهلك، وهو ما يقابل منه إلى الله وهو روحه وحقيقته وملكوته ومحلّ معرفة الله منه التي يبقى بعد فناء جسمه وشخصه. والمعنَيان متقاربان مأخوذان من أخبار معادن علم الله وآثار خزائن حكمة الله.

وصدر الحكماء زاد على هذه الجملة وقال ما حاصله:

إنّ كلّ ما هو من صقع الربوبيّة وناحية عالم الأمر وكان بريئاً من الشرّ والنقص وكاملاً بالفعل كالمجرّدات المحضة وما يقارنها، فهو باقٍ ببقاء الله تعالى وجوباً لا بإبقاء الله؛ إذ ليس فيه إمكان العدم فإنّ إمكان المقارنات الصرفة فرضي غير ثابت لها في الواقع؛ إذ ليست لها ماهيّة يعرضها الوجود، بل ماهيّاتها مندكّة في الوجود، فهي صرف الوجود ومحض الخير لا يتطرّق إليها الشرّ والعدم، وكلّ ما هو من صقع الإمكان والماهيّة وناحية عالم الخلق فهو فانٍ هالكٌ، كالعالم الجسماني بجميع مادّته وصورته وطبايعه ونفوسه، أرضيّةً كانت أو سماويّة، ناطقةً كانت أو صامتة، مع لواحقها وتوابعها وماهيّاتها وكمّيّاتها وكيفيّاتها وأوضاعها ونسبها؛ فإنّها كلّها دائرة حادثة كائنة فاسدة متجدّدة متصرّمة؛ انتهىٰ.

وهذا الذي ذكره هذا الحكيم الفحل واعتقد أنّه القول الجزل قد كرّر القول في كتبه. وعلى هٰذه المقالة جُلّ هٰذه الطائفة، ونقلوها عن قدماء الفلاسفة. ولا يخفى مخالفتها للشريعة الطاهرة ومباينتها للملّة القاهرة. وهٰذه جرأة عظيمة! وليست

---

١. الوافي ١: ٤١٧، ذيل الحديث ٣٤٣ ـ ١٠.

٢. الفقيه ٢: ٣٧٣ زيارة جامعة لجميع الأئمة.

٣. القصص (٢٨): ٨٨.

منهم بأوّل قارورة؛ مع أنّها معارضة لصريح العقل وقويّ الرأي، فإنّ العقل أوجب انحصار الموجود في الواجب والممكن ولا ثالث لهما قطعاً، وإذا ثبت بالبرهان وحدة الواجب فكلّ ما سواه من الذرّة إلى الدرّة من المجرّدي والمادّي ـ كائناً ما كان ـ ممكن بالإمكان الواقعيّ، وله ماهيّةٌ قابلة للوجود، وكلّ ممكن فهو جائز العدم والزوال والفناء والاضمحلال. وهٰذه قضيّة قياسها معها، فلا تذهل.

قوله ﷺ: (وَبِعِلْمِكَ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ) مسألة العلم معركة آراء الحكماء ومطرح أنظار العقلاء، واستقصاء المقال فيه يوجب العسرة والكلال، واستقراء ما قيل وما يقال فيه يورث الحيرة والضلال، فالاقتصار على المختار أولىٰ، والاكتفاء على المشتار أحرىٰ.

فنقول: في إثبات العلم له طريقان:

الأوّل للمتكلّم، وهو أنّه تعالى فاعل أفعالٍ محكمة متقنة يتحيّر فيها العقول والأوهام، وكلّ من كان كذلك فهو عالم، أمّا الكبرىٰ فبالضرورة؛ فإنّ من رأى خطوطاً مليحة حسنةً، أو سمع ألفاظاً بليغةً طيّبةً مُنبئة عن معان دقيقة وأغراض شريفة، أو شاهد نقوشاً رشيقةً بديعةً، علم قطعاً وقطع يقيناً أنّ فاعلَها وصانِعَها عالمٌ علماً كاملاً.

وأمّا الصغرى فغنيّةٌ عن البيان، وبطريق أوفىٰ: إنّ العلم كمال مطلق لمطلق الوجود بما هو موجود، وكلّما كان كمالاً لا يكون ممتنعاً للواجب تعالى، وكلُّ ما لا يمتنع عليه فهو واجب الحصول؛ إذ ليس له سبحانه قوّة إمكانيّة وحالة منتظرة، وإلّا لكان تعالىٰ فاقداً في حدّ ذاته لذلك الكمال، وفقد الكمال نقصٌ ـ تعالى شأنه عن ذلك ـ فهو تعالى عالم بذاته يدرك ذاته بذاته لا بأمر زائد، ويدرك جميع الأشياء من الدرّة إلى الذرّة من الأزل إلى الأبد بما كان وما يكون بأسبابها ومسبّباتها، وبتجدّدها وثباتها ودوامها وتصرّمها دفعة واحدة، بالإشراق الحضوري

والعلم الإشراقي.

وعلمه تعالى بذاته هو كونه نوراً بذاته وظاهراً لذاته، وعلمه بما سواه هو كونه ظاهراً له حاضراً لديه ظُهوراً وحضوراً لا أتمّ ولا أكمل ولا أعلى منه؛ فإنّ ما سواه طرّاً من الأزل إلى الأبد في جنب إحاطته الإشـراقـيّة وسـلطنتِه النـوريّة القـاهرة كالنقطة الواحدة، وسلسلة الزمان كلاًّ كالآن الواحد.

ثُمّ إنّه تعالى إذا علم شيئاً كان له إضافة مبدئيّة إليه تعالى، فإذا بطلت صورته بطلت تلك الإضافة إليه، ولا يلزم من بطلان الإضافة تغيّره تعالى؛ إذ لا يلزم من تغيّر الإضافات تغير المضاف إليه، كانتقال ما على اليـمين إلى اليسـار مـع بـقاء الشخص بحاله، وكما أنّ الشمس يدور معها الضياء حيث ما دارت ولا طلوع ولا غروب عندها، وتغيّر المستشرق بها وتبدّله لا يوجب تغيّراً فيها.

وأمّا طريقةالحكماء فنقول: إنّ ذاته تعالى علّة لجميع ما سواه؛ لأنّ العلّة المؤثّرة المستقلّة التامّة يجب أن يسدّ جميع أنحاء عدم المعلول، ولا يتأتّى ذلك بالعلل الإمكانيّة؛ لأنّ من جملة أنحاء عدم معلولها انعدامه بانعدامها، ولا يـمكنها سـدّ انعدام نفسها، فجميع الممكنات ـ ولو كانت غير متناهية ـ في حكم ممكن واحد في جواز طريان العدم عليها، فالسدّ المذكور لا يتمشّىٰ إلّا من العـلّة الوجـوبيّة، فواجبُ الوجوب بالذّات مبدأ سلسلة الممكنات وسادّ خلّة المحتاجات، وذاته تعالى مجرّد صرف وفعليّة محض، ما فيه شائبة مادّة ورائحة استعداد، وكلّ من هو كذلك فهو عالم بذاته لذاته لا بأمر زائد؛ فهو تعالى عالم بذاته الّذي هو من حيث هو علّة لغيره، والعلم بالعلّة بوصف كونه علّة مستلزم للعلم بالمعلول لما بينهما من التّضايف، كالعلم بالنار التي هي علّة للسخونيّة من حيث إنّها مسخّنةٌ؛ فهو جَلّ شأنه عالم بمعلوله الأوّل. ولأنّ المعلول الأوّل علّة للمعلول الثاني، وهو تـعالى عالم به بوصف كونه علّة لغيره، فهو تعالى عالم بمعلوله أيضاً، وهكذا إلى آخر سلسلة الموجودات. وهذا برهان قويّ لا يحوم حوله ريبٌ وشكٌّ.

بقي الإشكال فيما ورد في الآثار والأخبار عن الأئمّة الأطهارﷺ: من أنّه تعالىٰ عالم بما كان قبل أن يكون، وعالم إذ لا معلوم[۱].

ودفعه وحلّه بأن نقول على ما في الوافي: صفات الله الجماليّة الذاتيّة ـ ونعني بها ما يكون كمالاً في نفسه وعلى الإطلاق ويكون ضدّه نقصاً ـ على قسمين: قسمٌ لا إضافة فيه إلى غيره جلّ ذكره أصلاً، بل له وجهٌ واحد كالحياة والبقاء، وقسمٌ له إضافةٌ إلىٰ غيره كالعلم والقدرة والسمع والبصر؛ فإنّها عبارة عن انكشاف الأشياء في الأزل كليّاتها وجزئيّاتها، كلٌّ في وقته وبحسب مرتبته وعلى ما هو عليه فيما لا يزال، مع حصول الأوقات والمراتب له سبحانه في الأزل مجتمعة، وإن لم يحصل بعدُ لأنفسها وبقياس بعضها إلى بعض متفرّقة مفصّلة؛ وهٰذا الانكشاف ـ بمعنى أنّ ذاته تعالىٰ بحيث إذا وجد شيء انكشف له ولا يخفى منه ـ حاصل له بذاته من ذاته قبل خلق الأشياء، بل هو عين ذاته وإن تأخّرت إضافتها إلى الأشياء على حسب تأخّرها وتفرّقها في أنفسها ـ بمعنى أنّه لمّا أحدث الأشياء وكان المعلوم ـ وقع العلم منه على المعلوم والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور؛ فالقديم هو أصل العلم، والحادث هو الارتباط والإضافة[۲]. ولعلّ مراد الشيخ الجليل الإحساوي من قوله: «لله تعالى علمان: قديمٌ وحادث» ومراد الحكماء من قولهم: «إنّ لله علماً إجماليّاً وعلماً تفصيليّا وعنائياً وفعليّاً» هو هذا المعنى اللطيف.

ثمّ اعلم أنّ العلم ونحوه من صفات الذات عين ذاته تعالى، بمعنى أنّ ذاته تعالى علمٌ كلّه، قدرةٌ كلّه، حياة كلّه، وأنّه يترتّب على ذاته الأحديّة البحت آثار جميع الكمالات من غير افتقار إلى معانٍ أخر، قائمة به تسمّى صفات، تكون

---

۱. انظر الكافي ۱ / ۱۰۷ باب صفات الذات.

۲. الوافي ۱: ۴۴۶، ذيل الحديث ۳۶۱ ـ ۱.

مصدراً للآثار، كما في المخلوقات. وهذه المفاهيم والاعتبار العقليّة لا يوجب تكثّراً في الذات، ولا انحلّ بوحدانيّة الصرفة الخالصة أصلاً، بل تزيد وحدة، وهذا هو معنى قول سيّد العارفين والموحدين: «كمال الإخلاص نفي الصفات عنه»[1].

وما قد يقال: إنّ العالِم ذاتٌ ثَبَت له العلم وكذا ساير المشتقّات، فهو كلام ظاهريّ وجمودٌ على اللفظ، وخروج عن طور المعرفة.

ولو سلّم فنقول: ثبوت المبدأ في المشتقّ أعمّ من كونه عين المثبت له أو غيره، والأوّل يسمّى الحقيقيّ والثاني المشهوديّ كالأبيض، فإنّ الأبيض الحقيقيّ هو البياض نفسه، والمشهوديّ ذاتٌ ثبت له البياض وهو غيره؛ فافهم واستقم.

ولو قلنا: بأنّ المراد من العلم المحيط ـ المذكور في هذه الفقرة الشريفة ـ هو العقل والروح المحمدي، الذي فيه صورة كلّ شيء ومثال كلّ موجود، لم يكن بذلك البعيد بحكم الازدواج؛ فتأمّل.

(وَبِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَضَاءَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ).

النور والضوء مترادفان، ويعرّفان: بالظاهر بنفسه المظهِر لغيره؛ والفرق بينهما بأنّ الضوء ذاتيّ والنّور عرضي، لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾[2] غير مطّرد.

والمراد بالنور هنا هو العيني الوجودي لا العرضيّ الكيفيّ، فإنّ التعريف المذكور حقٌّ للوجود الحقيقيّ إذ هو النور المشرق على المواد الظلمانيّة، والضوء المتبلّج على الهيئات الغيهابيّة[3] من النور الأوّل المحمّديﷺ والضوء الأقدم الأحمديّ، فخرج الكلّ من الظلمة إلى النور، وصار الكلّ ذا ضوءٍ وظهورٍ، تطفّلاً

١. نهج البلاغة، خ ١. قال: «وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه».
٢. يونس (١٠): ٥.
٣. الغَيْهَبُ: الظلمة، ومن الليل: الشديد الظلمة.

لنوره الأعظم وتذلّلاً لوجوده الأكرم.

ولست أقول: هو ﷺ أوجَدَ الأشياء وخلقها كما يقوله بعض أهل المعرفة، مستنداً إلى ظاهر ما ورد عنهم: «نحن صنائع الله والخلق بعد لنا صنائع»[1] وأشباهه، وإن كان لو قلت هذا لما كان بذلك النكير وما أوجب عليّ التكفير؛ فإنّ القمر المنير في الليل المقمِر يستند إليه ضوء الهواء و خليقة الكتّان وريثته وظهور الأشياء وبروزها، فيقال: أنار القمر الهواء، وأخلق الكتّان، وأظهر الأشياء، مع أنّه عند التحقيق جرمٌ كَمِدٌ له صقالة لا ضوء له في حدّ نفسه، وإنّما يفيض إليه الضوء ويستنير من الشمس المضيئة بالذات عند مقابلته ومواجهته لها، وينعكس منه الضوء إلى الأرض وما فيها، كما ينعكس من المرآة المواجهة للشمس المستضيئة منها الضوء والشعاع إلى جوف البيت المظلِم فيستضيء البيت ويظهر مافيه، وعند التحقيق الضوء والشعاع من الشمس لا غير.

لكنّي أقصر النظر على التحقيق وأقول: لا مؤثر في الوجود ولا موجد إلّا الله جلّ شأنه، ولا قوّة إلّا بالله، وإنّ شأن النور الأوّل والروح الأعظم هو ما قال الله تعالى في حقّه: «يا ابن آدم خلقتك لأجلي، وخلقت الأشياء لأجلك، ولولاك لما خلقت»[2] وذلك لما قدثبت أنّ نور محمّدﷺ وعترته أشرف ما في الوجود، وثبت أنّ الله جعل كلّ ما هو أشرف وأعلى سبباً كماليّاً وعلّة غائيّة لما هو أحسنُ وأوفى، فخلق الأرض للنبات والنبات للحيوان والحيوان للإنسان والإنسان لسلطان العالم وسلطان العالم لذاته الأقدس جلّ شأنه، فالنور الأقدم الأحمدي مركز دائرة الوجود وقطب فلك الظهور، وعاكسٌ للكلّ، والكلّ عكوسٌ له، فسكّان الجبروت بعلومهم وعصمتهم وطهارتهم عكوسٌ له ﷺ بعلمه وعصمته وطهارته، وقطّان الملكوت بقدرتهم عكوس له ﷺ بقدرته. فإنّه يدُ الله، وحرّاس السماوات ونيّراتها

---

١. نهج البلاغة، الكتاب ٢٨، احتجاجه ﷺ على معاوية؛ بحار الأنوار ٣٣ / ٥٨، / ٣٩٨ و ٥٣ / ١٧٨ / ٩.

٢. لم يوجد بنصّه في المصادر.

بديمومتهم ورفعتهم عكوس له ﷺ بديمومة نوره ورفعته وعلّو مرتبته ومنزلته، وجلّاس محفل النبوّة، ونادى الرسالة وصدر أولي العزيمة في نشأة الناسوت عكوسٌ له ﷺ بنبوته ورسالته وأولي عزيمته، وحيوان عالم الكيان مِن الناسوت ومَن في درجته ونباتُه ومعدنه إلى بسائطه كلّها عكوس له ﷺ بمقام بشريّته.

ومن هنا قال ﷺ: «كُنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين»[1]. و «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»[2].

وفي الزيارة المأثورة: «بكم فتح الله وبكم يختم» و «ذكركم في الذاكرين، وأسماؤكم في الأسماء، وأجسادكم في الأجساد، وأنفسكم في النفوس، وأرواحكم في الأرواح، وآثاركم في الآثار، وقبوركم في القبور»[3].

وورد: «إنّ شجرة طوبىٰ أصلها في دار عليّ بن أبي طالب ؑ، وما من دار مؤمن إلّا وفيها غصنٌ من أغصانها»[4].

نظم:

ولا تقل دارها بشرقي نجد — كل نجدٍ لعامرية دار
ولها منزل على كل ماءٍ — وعلى كل دمنة آثار

أيضاً نظم لطيف:

وقد كان مجلى الذات نور محمد — عليه سلام الله في كلّ لحظة
وقد فتق الله المهيمن نوره — ليظهر كلّ اسم وكلّ حقيقة
ومجلىٰ صفات الله روح محمد — وكان به أرواح كلّ البريّة
وذلك روحٌ أعظم في الوجود من — ملائكة الرحمن قبل الخليقة

---

١. بحار الانوار: ١٦ / ٤٠٢ / ١ عن مناقب ابن شهرآشوب.
٢. وجد نحوه في أمالي الشيخ الصدوق، ص ٢٧٩ و ٣٢٤؛ علل الشرائع، ص ١٧٣؛ الخصال ص ٤١٥.
٣. الفقيه ٢: ٣٧٤، زيارة جامعة لجميع الأئمة.
٤. بحار الأنوار ٣٦: ٦٩ / ١٧ و ٣٩: ٢٢٦، عن الطرائف « طوبى شجرة أصلها في دار علي، و في دار كلّ مؤمن منهما غصن ».

ولنورد هنا أخباراً شريفة تتميماً للنعمة وتكميلاً للمعرفة.

ففي النبوّي: «أوّل ما خلق الله نوري، ثمّ فتق منه نور عليّ فلم نزل نتردّد في النور حتّى وصلنا حجاب العظمة في ثمانين ألف ألف سنة، ثمّ خلق الخلائق من نورنا، فنحن صنائع الله والخلق بعد لنا صنائع»[1].

وفي خبر آخر عن ابن عبّاس قال: كنّا عند رسول الله فأقبل علي بن أبي طالب فقال النبي: «مرحباً بمن خلقه الله قبل أبيه آدم بأربعين ألف سنة»، قال: فقلنا يارسول الله، أكان الابن قبل الأب؟ فقال: «نعم، إنّ الله خلقني وعلّياً من نور واحد قبل خلق آدم بهذه المدّة ثمّ قسمه نصفين، ثمّ خلق الأشياء من نوري ونور علي، ثمّ جعلنا عن يمين العرش فسبّحنا فسبّحت الملائكة، وهلّلنا وهلّلوا، وكبّرنا فكبرّوا، فكلّ من سبّح الله وكبرّه فإنّ ذلك من تعليمي وتعليم علي بن أبي طالب»[2].

واعلم أنّ «النصف» في هذا الخبر مشتقّ من النِّصَف والإنصاف، ومعناه التعادل والتساوي، لا التناقص المقابل للتمام والكمال؛ فتأمّل.

وفي الصادقي: «إنّ الله حين شاء تقدير الخليقة وذرءَ البرية وإبداع المبدعات، نصب الخلائق في صور كالهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته وتوحّد جبروته، فأساح نوراً من نوره فلمع، و[نزع] قبساً من ضيائه فسطع، ثمّ اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفيّة فوافق ذلك النور صورة نبيّنا محمّد، فقال الله عزّ وجلّ من قائل: إنّك المختار المنتَخب، وعندك أستودع نوري وكنوز هدايتي، ومن أجلك أسطَح البطحاء، وأرفَع السماء، وأمرج الماء، وأجعل الثواب والعذاب والجنّة والنار، وأنصب أهل بيتك بالهداية، وأوتيهم من

---

۱. مشارق أنوار اليقين: ۳۹.

۲. مشارق أنوار اليقين: ۴۰، بحار الأنوار ۲۵: ۲۴ / ۴۲.

مكنون علمي ما لا يخفى عليهمدقيق، ولا يغيبهم خفيّ، وأجعلهم حجّة على بريّتي والمنبّهين على علمي ووحدانيتي»[١].

والصور الهبائيّة كناية عن عالم الأعيان الثابتة وعالم الذرّ الأوّل. و «أساح» أي أجرىٰ[٢]، و«مرج» الماء[٣] خلاه يجري.

وفي خبر آخر: «لمّا خلق الله محمّداً ﷺ سراجاً منيراً أشرق نوره حتّى ملأ العمق الأكبر، يعني عالم الإمكان»[٤].

وفي محكيّ البحار عن كتاب الأنوار [لأستاد][٥] الشهيد [الثاني] طاب ثراه، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «كان الله ولا شيء معه، فأوّل ما خلق الله نور حبيبه محمّد ﷺ قبل خلق الماء والعرش والكرسي والسماوات والأرض واللوح والقلم والجنّة والنار والملائكة وآدم وحوّاء بأربعة وعشرين وأربعمائة ألف عام، فلمّاخلق الله تعالى نور نبيّنا محمدﷺ بقي ألف عام بين يدي الله عزّ و جلّ واقفاً يسبّحه ويحمّده، والحقّ تبارك وتعالى ينظر إليه ويقول: ياعبدي، أنت المراد والمريد، أنت خيرة من خلقي، وعزّتي وجلالي لولاك لما خلقت الأفلاك، من أحبّك أحببتُه، ومن أبغضك أبغضته، فتلألأ نوره وارتفع شعاؤه، فخلق الله منه اثني عشر حجاباً: أوّلها حجاب القدرة، ثمّ حجاب العظمة، ثمّ حجاب العزّة، ثمّ حجاب الهيبة، ثمّ حجاب الجبروت، ثمّ حجاب الرحمة، ثمّ حجاب النبوة، ثمّ حجاب الكبرياء، ثمّ حجاب المنزلة، ثمّ حجاب الرفعة، ثمّ حجاب السعادة، ثمّ

---

١. بحار الأنوار ٥٤: ٢١٢ / ١٨٤، عن مروج الذهب للمسعودي ١: ٤٢، باختلاف يسير.

٢. لسان العرب ٢: ٤٩٢. (سيح) و في المصدر (أتاح).

٣. الصحاح ١: ٣٤١. (مرج).

٤. لم يوجد في المصادر، ولكن ورد في كتب العرفاء.

٥. هو الشيخ الجليل أحمد بن عبدالله بن محمد البكري (المتوفى ٩٥٢) صاحب كتاب الأنوار في مولد النبي ﷺ و غيره، أحد مشايخ الشهيد الثاني؛ الذريعة ٢: ٤٠٩ ـ ٤١٠.

حجاب الشفاعة، ثمّ إنّ الله تعالى أمر نور رسول اللهﷺ أن يدخل في حجاب القدرة، فدخل وهو يقول: سبحان الله العلي الأعلى، وبقي على ذلك اثني عشر ألف عام، ثمّ دخل في حجاب العظمة وهو يقول [سبحان عالم السرّ وأخفى ، أحد عشر عام]، ثمّ دخل في حجاب العزّة وهو يقول: سبحان الله الملك المنّان، عشرة ألف عام، ثمّ دخل في حجاب الهيبة وهو يقول: سبحان من هو غنيّ لا يفتقر، تسعة آلاف عام، ثمّ دخل في حجاب الجبروت وهو يقول: سبحان الكريم الأكرم، ثمانية آلاف عام، ثمّ دخل في حجاب الرحمة وهو يقول: سبحان ربّ العرش العظيم، سبعة آلاف عام، ثمّ دخل في حجاب النبوّة وهو يقول: سبحان [ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون] ستّة آلاف عام، ثمّ دخل في حجاب الكبرياء وهو يقول: سبحان العظيم الأعظم، خمسة آلاف عام، ثمّ دخل في حجاب المنزلة و هو يقول: سبحان العليم الكريم أربعة آلاف عام، ثمّ دخل في حجاب العليم الكريم، أربعة آلاف عام، ثمّ دخل فيحجاب الرفعة وهو يقول: سبحان ذي الملك والملكوت، ثلاثة آلاف عام، ثمّ دخل في حجاب السعادة وهو يقول: سبحان من يزيل الأشياء ولا يزول،ألفي عام، ثمّ دخل في حجاب الشفاعة وهو يقول: سبحان الله وبحمده؛ سبحان العظيم، ألف عام.

قال الإمام علي بن أبي طالبؑ: ثمّ إنّ الله تعالى خلق من نور محمّدﷺ عشرين بحراً من نور، وكلّ بحر علوم لا يعلمها إلّا الله، ثمّ قال لنور محمّد: انزل في بحر العزّ فنزل، ثمّ في بحر الصبر، ثمّ في بحر الخشوع، ثمّ في بحر التواضع، ثمّ في بحر الرضى، ثمّ في بحر الوفاء، ثمّ في بحر العلم، ثمّ في بحر التقىٰ، ثمّ في بحر الخشية، ثمّ في بحر الإنابة، ثمّ في بحر العمل، ثمّ في بحر المزيد، ثمّ في بحر الهدى، ثمّ في بحر الصيانة، ثمّ فى بحر الحياء، حتّى تقلّب في عشرين بحراً فلّما خرج من آخر الأبحر قال الله تعالى: يا حبيبي ويا سيّد رسلي، ويا أوّل مخلوقاتي، ويا آخر رسلي، أنت الشفيع يوم المحشر.

فخرّ النور ساجداً ثمّ قام فقطرت منه قطرات كان عـددها مـائة ألف وأربـعة وعشرين ألف قطرة، خلق الله تعالى من كلّ قطرة من نور نبيّنا نبيّاً من الأنبياء، ولمّا تكاملت الأنوار صارت تطوف حول نور محمّدﷺكما تطوف الحجّاج حول بيت الله الحرام، وهم يسبّحون الله ويحمّدونه ويقولون: سبحان من هو عالم لا يجهل؛ سبحان من هو حليم لا يعجل؛ سبحان من هو غنيّ لا يفتقر.

فناداهم الله تعالى: تعرفون من أنا؟ فسبق نور محمّدﷺ قبل الأنوار ونادىٰ: أنت الله الّذي لا إله إلّا أنت، وحدك لا شريك لك، ربُّ الأرباب، ملك الملوك،

فإذا بالنداء من قبل الحقّ: أنت صفيّي، وأنت حبيبي وخير خلقي، أمّتك خير أمّة أخرجت للنّاس؛ ثمّ خلق من نور محمّدﷺ جوهرة وقسمها قسمين: فنظر إلى القسم الأوّل بعين الهيبة فصار ماءً عذباً، ونظر إلى القسم الثاني بعين الشفقة فخلق منه العرش فاستوى على وجه الماء، فخلق الكرسيّ من نور العرش، وخلق من نور الكرسي اللّوح، وخلق من نور اللوح القلم. وقال له أكتب توحيدي، فـبقي القلم ألف عام سكران من كلام الله تعالى، فلّما أفاق قال: ياربّ، ما أكتب؟ قال: اكتب: لا إله إلّا الله؛ محمّد رسول الله. فلّما سمع القلم اسم محمّدﷺ خرّ ساجداً وقال: سبحان الواحد القهّار؛ سبحان العظيم الأعظم، ثمّ رفع رأسه من السـجود وكتب لا إله إلّا الله؛ محمّد رسول الله، ثمّ قال: ياربّ، ومن محمّد الذي قرنت اسمه باسمك وذكره بذكرك؟ قال الله تعالى: يا قلم لولاه لما خلقتك، ولا خلقت خلقي إلّا لأجله، فهو بشير ونذير وسراج منير وشفيع وحبيب. فعند ذلك انشقّ القلم من حلاوة ذكر محمّدﷺ.

ثمّ قال القلم: السلام عليك يارسول الله، فقال الله تعالى: عليك السلام منّي وبركاتي، فلأجل هذا صار السلام سنّةً والردّ فريضةً، ثمّ قال تعالى: «اكتب قضائي وقدَري وما أنا خالقه إلى يوم القيامة».

ثمّ خلق الله ملائكة يصلّون على محمّد ﷺ ويستغفرون لأمّته إلى يوم القيامة،

ثمّ خلق الله من نور محمّدﷺ الجنّة وزيّنها بأربعة أشياء: التعظيم والجلال والسخاء والأمانة، وجعلها لأوليائه وأهل طاعته. ثمّ نظر إلى باقي الجوهر بعين الهيبة فذابت، فخلق من دخانها السماوات ومن زبدها الأرَضين، فلمّا خلق الله تبارَك وتعالى الأرض صارت تموج بأهلها كالسفينة، فخلق الله الجبال فأرساها بها، ثمّ خلق ملكاً من أعظم ما يكون في القوّة، فدخل تحت العرش، ثمّ لم يكن لقدمي الملك قرار فخلق الله صخرة عظيمة وجعلها تحت قدمي الملك، ثمّ لم يكن للصخرة قرارٌ فخلق لها ثوراً عظيماً لم يقدر أحدٌ أن ينظر إليه لعظم خلقه وبريق عيونه، حتّى لو وضعت البحار كلّها في إحدى منخريه ما كانت إلّا كخردلة ملقاة في أرضٍ فلاةٍ، فدخل الثور تحت الصخرة، وحملها على ظهره وقرونه، واسم ذلك الثور «لهوتا»، ثمّ لم يكن لذلك الثور قرار فخلق الله تعالى حوتاً عظيماً، واسم ذلك الحوت «بهموت» فدخل الحوت تحت قدمي الثور، فاستقرّ الثور على ظهر الحوت، فالأرض كلّها على كاهل الملك والملك على الصخرة والصخرة على الثور والثور على الحوت والحوت على الماء والماء على الهواء والهواء على الظلمة، ثمّ انقطع علم الخلائق عمّا تحت الظلمة.

ثم خلق الله تعالى العرش من ضيائين: أحدهما الفضل، والثاني العدل، ثمّ أمر الضيائين فانتفسا بِـنَفَسَين، فخلق منهما أربعة أشياء: العقل والحلم والعلم والسخاء، ثمّ خلق من العقل الخوف، ومن الحلم المودّة، ومن العلم الرضى، ومن السخاء المحبّة، ثمّ عجّن هذه الأشياء في طينة محمّد ﷺ، ثمّ خلق من بعدهم أرواح المؤمنين من أمّة محمّدﷺ، ثمّ خلق الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والضياء والظلام وسائر الملائكة من نور محمّدﷺ، فلمّا تكاملت الأنوار سكن نور محمّدﷺ تحت العرش ثلاثة وسبعين ألف عام، ثمّ انتقل نوره إلى الجنّة فبقي سبعين ألف عام، ثمّ انتقل إلى سدرة المنتهى فبقي سبعين ألف عام، ثمّ انتقل نوره إلى السماء السابعة، ثمّ إلى السماء السادسة، ثمّ إلى السماء الخامسة، ثمّ إلى السماء

الرابعة، ثمّ إلى السماء الثالثة، ثمّ إلى السماء الثانية، ثمّ إلى السماء الدنيا، فبقي نوره في سماء الدنيا إلى أن أراد الله أن يخلق آدمﷺ[1].

وهذا خبر شريف أوردته هنا بطوله، وخرجت بذلك عن طور هذا الشرح تكميلاً للمعرفة وتتميماً للنعمة، فاضبطه وكن من الشاكرين.

وبعد ما دعى ﷺ ربّه الأعلى بصفاته العليا، ونادى بأسمائه الحسنىٰ استغرق في بحار كماله، واستشرق بأنوار جلاله، فكرّر النداء بوجهٍ لا يشاهد إلّا جماله، ولا يطالع إلّا جلاله فقالﷺ :

(يَا نُورُ يَا قُدُّوسُ) قد عرفت النور بأنّه الظاهر بنفسه المظهر لغيره. والقدوس مبالغة في القدس، وهو البراءة والنزاهة من العيب والنقص، تعالى شأنه.

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي) وأصل الغفر الستر والتغطية، والمراد هنا: الصفح والتجاوز. والذنوب جمع الذنب وهو الخطيئة، والجريمة والمعصية بمعنى، وهو ما يخالف حكم العقل والشرع فعلاً أو تركاً.

قولهﷺ (تَهْتِكُ الْعِصَمَ) والعصمة : المنع، والمراد بها هنا : إمّا منع نزول المكروه ورفع ما يدفع العقاب، وفتح باب الخسران والخذلان، وإيجاب الفضاحة والفظاعة في الدنيا والآخرة.

والذنوب التي توجب ذلك على ما روي عن الصادقﷺ: «شرب الخمر، واللعب، والقمار، وفعل ما يضحك الناس من اللهو، وذكر عيوب الناس، ومجالسة أهل الريب»[2] هكذا في مجمع البحرين.

---

١. بحارالأنوار ١٥ : ٢٧/٤٨ و ٥٤ : ١٩٨/١٤٥، عن كتاب الأنوار لأستاد الشهيد الثاني طاب ثراه.

٢. معاني الأخبار: ٢/٢٧١، باب معنى الذنوب... وفيه: «والذنوب التي تهتك العصم: شرب الخمر، واللعب بالقمار، وتعاطي مايضحك الناس من اللغو والمزاح، وذكر عيوب الناس، ومجالسة أهل الريب.» أبا خالد الكابلي يقول: سمعت زين‌العابدين علي بن الحسينﷺ. وانظر مجمع البحرين ٦: ١١٦. (عصم).

والمراد بشرب الخمر شرب كلّ مسكر يخمر العقل ويستره سواء اتّخذ من العنب والتمر، أو العسل والحنطة والشعير، أو الذرّة، أو غير ذلك حتى الحشيشة والبنج.

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ النِّقَمَ) النقم: جمع النقمة، وهي ضدّ النعمة، ويعبّر عنها بالعقوبة والخيبة والخسران. والذنوب التي تنزلها على ما روي عن الصادق﵇ «هي العصيان، والاستهزاء بالناس، والسخرية منهم»[1].

وفي الوافي عنه﵇: «إنّ الذنوب التي تُنزل النِقم: الظلم». والمراد بالظلم منع كلّ ذي حقٍّ حقّه، سواءً كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً، وسواء كان في حقّ نفسه أو غيره، في دين أو دنياً، ومن المعلوم أنّ المظلوم كلّما كان أشرف كان الظلم أقبح وأشدّ.[2]

قوله﵇: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ) النعمة في الأصل الحالة التي يستلذّ بها الإنسان من النَّعمة بالفتح وهي اللين، ثمّ أطلقت لغة على ما يستلذّ بها الإنسان من طيبات الدنيا، «وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها».[3]

والذنوب التي تغيّرها على ما روي عن أبي عبدالله﵇: «البغي على الناس، والردّ على العالم، وكفران النعمة والشرك بالله»[4].

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَحْبِسُ الدُّعَاءَ) قد مضى معنى الدعاء، وحبسُ الدعاء ردّها وعدم إجابتها، والذنوب الموجبة لذلك على ما روي عن الصادق﵇: «سوء النية

---

۱. المصدر: ۲۷۰. وفيه: «والذنوب التي تنزل النقم: عصيان العارف بالبغي والتطاول على الناس والاستهزاء بهم والسخرية منهم».

۲. الوافي ۵: ۳۵۴۸/۱۰۳۹ ـ ۱، عن الكافي ۲: ۴۴۲؛ ورواه الصدوق في معاني الأخبار: ۱/۲۶۹.

۳. ابراهيم (۱۴): ۳۴.

۴. معاني الأخبار: ۲/۲۷۰. باب معنى الذنوب... «الذنوب التي تغيّر النعم: البغي على الناس والزوال عن العادة في الخير، واصطناع المعروف، وكفران النعمة وترك الشكر» عن زين‌العابدين﵇.

والسريرة،وترك التصديق بالإجابة والنفاق مع الإخوان وتأخير الصلاة عن وقتها»[١].

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ الْبَلَاءَ) أي المكروه وخلاف العافية. والذنوب التي تنزلها على ما روي عن سيّد العابدين: «ترك إغاثة الملهوف، وترك معاونة المظلوم، وتضييع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٢] والملهوف: المضطرّ المستغيث المتحيّر.

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتِي تَقْطَعُ الرَّجَاءَ) الرجاء ـ ممدوداً ـ الأمل وتوقع حصول المطلب بعد تحقّق الأسباب لحصوله، وإلّا فالصادق اسم الغرور والحمق. والذنوب التي تقطعها على ما رُوِيَ عن الصادق عليه السلام: «اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والثقة بغير الله، والتكذيب بوعده»[٣].

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي كُلَّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ) أي ارتكبته (وَكُلَّ خَطِيئَةٍ أَخْطَأْتُهَا) أي فعلتها وأوقعتها. والفعل هنا من باب أنجد النجد وقعر القعر، أي دخل النجد وبلغ القعر،والذنب يطلق على ما يقصد بالذات، والخطيئة تغلب على ما يقصد بالعرض لأنّها من الخطإ.

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَقَرَّبُ) إلى قوله عليه السلام: (وَأَنْ تُلْهِمَنِي ذِكْرَكَ) كأنّه صلوات الله عليه لمّا دعىٰ ربّه ـ علت آياته ـ بالمغفرة، وعرّف نفسه بالنقصان والذلّة مع ما أجرىٰ عليه ـ جلّ شأنه ـ من صفاته العليا، وذكر له من أسمائه الحسنىٰ، سمع من حجاب القدس والجلال وسرادق العزّ والجمال: ﴿إِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٤] واستشعر قلبه أنّ قربه تعالى من العبد إنّما هو من صرف الرحمة الكاملة ومحض

---

١. معاني الأخبار: ٢٧١ «الذنوب التي تردّ الدعاء: سوء النيّة وخبث السريرة، والنفاق مع الإخوان، وترك التصديق بالإجابة، وتأخير الصلوات المفروضات حتّى تذهب أوقاتها، وترك التقرب إلى الله بالبرّ والصدقة، واستعمال البذاء والفحش في القول» عن زين العابدين عليه السلام.

٢. المصدر.

٣. المصدر: «والذنوب التي تقطع الرجاء: اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والثقة بغير الله، والتكذيب بوعد الله عزّ وجلّ» عن زين العابدين عليه السلام.

٤. البقرة (٢): ١٨٢.

النعمة الشاملة، وأنّ العبد وإن وصل ما وصَلَ وبلغ ما بلغ من الكمال فلا يمكنه طيّ منازل الكثرة ومراحلِ التفرقة وطرحُ البُعد من البين والخروجُ من الأين إلى مقام القرب والفناء في العين، إلّا بفضله وجوده وكرمه وبركة ذكره وكرامة شكره، فقام مقام العبوديّة والشهود وتبهّل إلى الحقّ المعبود، فقال:

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِذِكْرِكَ وَأَسْتَشْفِعُ بِكَ إِلَى نَفْسِكَ وأَسْأَلُكَ بِجُودِكَ أَنْ تُدْنِيَنِي مِنْ قُرْبِكَ وَأَنْ تُوزِعَنِي شُكْرَكَ وَأَنْ تُلْهِمَنِي ذِكْرَكَ).

والاستشفاع طلب الشفيع والمعين لإعانة فيما لا يقدر عليه. والباء مثلها في قوله:

مضىٰ زمن والنّاس يستشفعون بي.

ولدفع توهّم التجوّز من جهة استبعاد كون شخص واحد شافعاً ومشفوعاً إليه أقحم لفظ النفس بين إلى ومجرورها، وهذا هو التوحيد الذاتي.

قوله عليه وعلى آبائه السلام: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ سُؤَالَ خَاضِعٍ) الخضوع قريب من الخشوع، أو هو في البدن والخشوع في الصوت والبصر، أو هو بالقلب و ذلك بالجوارح.

(مُتَذَلِّلٍ خَاشِعٍ أَنْ تُسَامِحَنِي) المسامحة: الجود والعفو والمساهلة.

(وَتَرْحَمَنِي وَتَجْعَلَنِي بِقِسْمِكَ) أي بحظّي أو نصيبي الذي أعطيتني (رَاضِياً قَانِعاً) أي تاركاً لطلب الزائد على ما أعطيتني.

وقد يقال: القناعة هي ترك طلب الزائد على ما تندفع به الحاجة مع رغبةٍ ضعيفة فيه، والرضى هو الترك من غير رغبةٍ وفرحٍ بحصول الزائد وإن كان مع ذلك كارهاً لحصول الزائد، فالرضى أعلىٰ من الزهد.

قوله﵇: (وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ مُتَوَاضِعاً) إذا عرف الإنسان نفسه أوّل خلقه ووسطه وآخره وأنّه كان بالأمس نطفة ثمّ هو غداً جيفة، علم أنّه أذلّ ذليل وأقلّ قليل، وأنّه لا يليق به إلّا التذلّل دون الترفّع والتكبّر.

قوله ﷺ: (اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ) إسقاط «إنّي» إمّا لحصول القرب والوصال والالتفات التامّ إلى المدعوّ والانقطاع عمّا سواه مطلقاً، وإمّا للحرص على السؤال وفرط الاهتمام به بحيث يذهل عن السائل.

(سُؤَالَ مَنِ اشْتَدَّتْ فَاقَتُهُ) الفاقة: الفقر وهو عدم وفاء المال والكسب لمؤونته ومؤونة عياله، واشتداده هو درجة الاضطرار والاحتياج إلى ما تندفع به الضرورة بعد فقده.

قوله ﷺ: (وَأَنْزَلَ بِكَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ حَاجَتَهُ، وَعَظُمَ فِيمَا عِنْدَكَ رَغْبَتُهُ) يعني: سؤال من تيقّن أو أيقن وتبصّر وأبصر أنّ ما دون عرشك إلى قرار أرضك السابعة السفلى باطل مضمحلّ، ما عدا وجهك الكريم، وأنّ «ما عند الناس ينفد وما عند الله باق»[١]، فانقطعَ عن الكلّ ورغب إليك وتوجّه إليك بحاجته وخصّك بسؤاله وطلب منك رفع فاقته، فحقّ عليك أن لا تخيّبه ولا تردّه ولا تمنعه.

(اللَّهُمَّ عَظُمَ سُلْطَانُكَ وَعَلَا مَكَانُكَ) ليس المراد هنا هو الحيّز الذي من لوازم الجسم بالبداهة، بل المراد تصوير عظمته وتمثيل عزّ جلاله وبيان علوّ شأنه من أن يصل إليه أيدي الأوهام، ولهذا قد يقال: «المكان» مصدر ميميّ بمعنى الكون والوجود.

(وَخَفِيَ مَكْرُكَ) مكر الله استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب.

(وَظَهَرَ أَمْرُكَ) أمر الله دينه وشرعه، ويحتمل أن يراد بأمره تعالى القدر النازل على وفق القضاء، والمراد بظهوره وقوعه وحصوله سواء كان مكروهاً للخلق أو محبوباً، وقد يعبّر عنه بكلمة «كن» الوجودي الساري في جميع الموجودات ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[٢].

---

١. النحل (١٦)، الآية ١٣: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ﴾.
٢. الأعراف (٧): ٥٤.

(وَغَلَبَ قَهْرُكَ) على ما سواك فإنّ الكلّ ممكن ليسّ محض (وَجَرَتْ قُدْرَتُكَ) والكلّ مقدور لك ولو بتوسّط العلل والأسباب.

(وَلَا يُمْكِنُ الْفِرَارُ مِنْ حُكُومَتِكَ) حكي عن أفلاطون الإلهي أنّه قال: الأفلاك قسيّ، والحوادث سهام، والإنسان هدف، والله هو الرامي، فأين المفرّ؟ وقد ذكر هذا القول عند أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «ففرّوا إلى الله جلّ شأنه»[1].

قوله عليه السلام: (اللَّهُمَّ لَا أَجِدُ) إلى قوله (غَيْرَكَ) إذ لا مؤثّر في الوجود غيرك.

(لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ): لا معبود بالحقّ في دائرة الوجود إلّا ذاتك المقدّس، بل لا معبود مطلقاً إلّا هو، وجميع ما سواه باطل مضمحلّ، ولمّا أشعر قلبه بعظمته وجلاله وكماله وجماله وبهائه، وعموم فيضه ونواله، وشمول قدرته وسلطانه، كأنّه صار المقام مقام الحيرة والهيمان، فقال عليه السلام: (سُبْحَانَكَ) ما أعظم شأنك وقدرتك وأقدس ساحة جلالك عن كدورة النقص (وَ) الحال أنّي مشغول (بِحَمْدِكَ) أو أنّ تسبيحي مقرون بحمدك.

(ظَلَمْتُ نَفْسِي) الظلم ضدّ العدل أعني ترك ما يجب فعله وفعل ما يجب تركه، وظلم النفس تعريضها للعقاب وجعلُها عرضة للهلاك بمخالفة الشرع والعقل وارتكاب المعاصي واجترام المساوي.

(وَتَجَرَّأْتُ) بمخالفتك ومعصيتك (بِجَهْلِي) بشأنك وعظمتك وغفلتي عمّا يلزم ذلك. وفيه إشارة إلى أنّ من عصى الله وخالف أمره ونهيه فهو جاهل به وبصفاته.

(وَسَكَنْتُ) أي التجأت واطمأننت (إِلَى قَدِيمِ ذِكْرِكَ) في عالم علمك السابق وعالم الأمر قبل أن أكون شيئاً مذكوراً في عالم الخلق. وذِكرُ الله للعبد هو التوجّه إليه بالبرّ والإحسان. (وَمَنِّكَ عَلَيَّ) المنّ والمنّة: النعمة والإحسان والعطاء.

(اللَّهُمَّ مَوْلَايَ) في ذكر المولى من التلذّذ والتشرّف والمباهات والابتهاج ما لا

---

۱. لم نعثر على نصّ العبارة، ولكن في تنبيه الخواطر ونزهة النواظر ۱: ۱۴۴. «قال بعض الحكماء: الأيّام سهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كلّ يوم بسهامه...»

يخفىٰ. (كَمْ مِنْ قَبِيحٍ) صدر منّي (سَتَرْتَهُ) عليّ (وَكَمْ مِنْ فَادِحٍ) أمر مثقل (مِنَ الْبَلَاءِ) اللازم لي باستيجاب عملي (أَقَلْتَهُ) و رددته ونسخته بمنّك وفضلك.

(وَكَمْ مِنْ عِثَارٍ) أي كبوة وسقطة، مصدر عثر إذا كبا وسقط (وَقَيْتَهُ) منعته من أن ينزل بي (وَكَمْ مِنْ مَكْرُوهٍ) أشرف على الوقوع عليّ (دَفَعْتَهُ) بكرمك.

(وَكَمْ مِنْ ثَنَاءٍ جَمِيلٍ لَسْتُ أَهْلاً لَهُ) مستحقّاً له بعملي (وَقَدْ نَشَرْتَهُ) لي فضلاً منك ورحمة، فإنّك المبتدئ بالنعم قبل استحقاقها.

(اللّٰهُمَّ عَظُمَ بَلَائِي) بما أبعدني من رضوانك (وَأَفْرَطَ بِي سُوءُ حَالِي) أي جاوزني عن حدّي سوء حالي، وحدّي الإطاعةُ والعبوديّة (وَقَصُرَتْ بِي أَعْمَالِي) أي حبسني أعمالي القبيحة من الطيران إلى رياض رضوانك وحدائق إحسانك (وَقَعَدَتْ بِي أَغْلَالِي) أي أقعدني أغلال المعاصي وسلاسل الذنوب من العروج إلى عالم النور (وَحَبَسَنِي عَنْ نَفْعِي بُعْدُ آمَالِي) جمع الأمل وهو الطمع، وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يستبعد حصوله.

قوله ﷺ: (وَخَدَعَتْنِي الدُّنْيَا بِغُرُورِهَا) والدنيا دار بالغرور معروفة وبالبلاء محفوفة، وهي الخوّانة المكّارة. والمراد بغرورها زينة الحياة الدنيا وزهرتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث والقصور المشيّدة، ومرجع الكلّ إلى هوى النفس كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[1]، وكأنّ الهوىٰ مقصور من الهواء ممدوداً.

وعن العارف من الدنيا ومطلّق عروسها طلاقاً لا رجعة فيها في تمثيل غرور الدنيا: «إنّي كنت بفدك في بعض حيطانها وقد صارت لفاطمة ﷺ، فإذا أنا بامرأة قد قحمت عليّ وفي يدي مسحاة وأنا أعمل بها، فلمّا نظرت إليها طار قلبي ممّا تداخلني من جمالها، فشبّهتها بـ «بُثَيْنَة» بنت عامر الجحمي، وكانت من أجمل نساء قريش، فقالت: يابن أبي‌طالب هل لك أن تتزوّج بي فأغنيتك عن هذه

١. النازعات (٧٩): ٤٠

المسحاة وأدلّك على خزائن الأرض فيكون لك ما بقيتَ ولعقبك من بعدك؟ قلت لها: مَن أنتِ حتّى أخطبك من أهلك؟ فقالت: أنا الدنيا. قلت لها: فارجعي واطلبي زوجاً غيري. فأقبلتُ على مسحاتي وأنشأت أقولُ ـ عربيّة ـ:

لقد خاب من غـرّته دنـيا دنـيّةٌ ... وما هـي إن غـرّت قـروناً بـنائل

أتـتنا عـلى زيّ العـزيز بُـثَيْنَةً ... وزينتها في مثل تـلك الشـمائل

فقلت لها: غـرّي سـواي فـإنّني ... عزوف من الدنيا ولست بـجاهل

ومـا أنـا والدنـيا فـإنّ مـحمّداً ... أحلّ صريعاً بين تـلك الجـنادل

وَهَـبْها أتـتني بـالكنوز ودرّهـا ... وأمـوال قـارون ومـلك القـبائل

أليس جـميعاً للـفناء مـصيرنا ... ويطلب من خـزّانـها بـالطوائـل

فغرّي سـواي إنّـني غـير راغب ... بما فيك مِـن عـزّ ومـلك ونـائل

فقد قَنِعَت نفسي بما قـد رَزِقْـتُه ... فشأنك يـادنيا وأهـل الغـوائـل

فـإنّي أخـاف الله يـوم لقـائه ... وأخشى عذاباً دائماً غير زائـل[1]

قوله ﷺ: (وَنَفْسِي بِخِيَانَتِهَا) بأن عرضتني للعقاب والهلاك، وأمرتني بالسوء والعصيان.

قوله ﷺ: (مِنْ تَزْيِينِ عَدُوّي) وهو الشيطان حيث زيّن لي أعمالي، ودلّني طريق الهوى. وتغريره في مخالفة الهدىٰ ما أفاده أبو حامد صاحب إحياء العلوم بقوله:

إنّ خاطر الهوى يبتدئ أولاً فيدعو صاحبه إلى الشرّ، فيَلحقه خاطرُ الإيمان فيدعوه إلى الخير فتنبعث النفس بشهواتها إلى نصرة خاطر الهوىٰ والشرّ فتقوي الشهوة وتحسن التمتّع، فينبعث العقل إلى خاطر الخير، ويدفع في وجه الشهوة ويقبّح فعلها وينسبها إلى الجهل، ويشبّهها بالبهيمة والسبع في تهجّمها على الشرّ وقلّة اكتراثها بالعواقب، وتميل النفس إلى نصح العقل، فيحمل الشيطان حملةً على العقل

---

۱. بحارالأنوار ۴۰ : ۱۰/۳۲۸ عن مناقب آل أبي‌طالب و ۷۴ : ۱۲/۱۹۵ عن كتاب الأربعين لابن أخ السيد عزّالدين أبي المكارم حمزة بن علي بن زهرة الحسيني وج ۷۲ : ۷۷/۳۶۲، عن رسالة الغيبة للشهيد الثاني.

ويقوّي داعي الهوىٰ فيقول: ما هذا الزهد البارد ولِمَ تـمتنع عـن هـواك فتؤذي نفسك؟!، وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه ويترك عزيمته؟ أفتترك ملاذّ الدنيا لهم يتمتّعون منها، وتحجر على نفسك حتّى تبقىٰ محروماً مطعوناً يضحك عليك أهل الزمان، تريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان، وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا؟ أما ترىٰ العالم الفلاني ليس يحترز عن فعل ذلك، لو كـان شـرّاً لامـتنع عـنه؟! فـتميل النفسُ إلى الشيطان وتنقلب إليه، فيحمل الملك حـملةً عـلى الشـيطان ويقول: هل أهلك إلّا من اتّبع لذّة الحال ونسي العاقبة، أفتقنع بلذّة يسيرة وتترك [لذّة] الجنّة ونعيمها أبد الآباد، وتستثقل ألم الصبر على الشهوة، ولا تستثقل ألم النار؟ أفتغترّ بغفلة الناس عن أنفسهم واتّباعهم الهـوى ومساعدتهم الشيطان؟ مع أنّ عـذاب النـار لايـخفّفه [عـنك] مـعصية غيرك. فعند ذلك تميل النفس إلى قول المـلك فـلا يـزال مـتردّداً بـين الجندين متجاذباً إلى الجانبين إلى أن يغلب من هو أولى به، فإن غـلب على النفس الصفات الشيطانيّة غلب الشيطان وأجرى عـلى جـوارحـه سوابق القدر وما هو سبب بُعده [عن الله تعالى]، وإن غلب عليه الصفات الملكيّة لم يُصغ القلب [إلى] إغواء الشيطان وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء[١]. انتهى.

وهذه المطاردة والمنازعة في معركة وجود الآدمي قائم بـين جـندي المـلك والشيطان إلى أن ينفتح لأحدهما فيتمكّن ويستوطن؛ وذلك لأنّ أشـرف البـقاع قلبُ الإنسان، ولا تجد دياراً عامرة ولا رياضاً ناظرة إلّا والقلب أشرف منها فإنّ فيه جميع ما في العالم الحسّي والمجردي، وهو عرش الرحمن وبيت المنّان، وما من مملكة وسيعة معمورة إلّا وفيها تنازع الملوك وتخاصمهم، والشـيطان قـد فـتح

١. المحجّة البيضاء ٥ : ٨٥؛ إحياء علوم الدين ٣ : ٤٧. بيان سرعة تقلّب القلب وانقسام القلوب... والمنقول في المتن مطابق لما في «المحجّة»، فراجع.

وملك أكثر القلوب فاستبعدها واسترقّها وأسر أهلها، والعياذ بالله.

قوله ﷺ: (وَلَكَ الْحَمْدُ عَلَيَّ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ) في بعض النسخ: «الحجّة» بدل «الحمد» والمعنى على الحمد: أنّه يجب عليّ أن أحمِدَك في إمهالي وإكرامي، والإحسان إليّ مع ما أنا عليه من المساوي والمقابح، وفيه إشعار بالرضى والقضاء والحكم الأزليّ كما هو شأن المؤمن بل من أركان الإيمان على ما ورد في الأخبار، وهذا عند التحقيق حمد على القضاء لا المقضيّ؛ فافهم.

وأمّا على قراءة الحجّة ـ وهو الأنسب بالسياق ـ فالمعنى أنّ ما صدر منّي وجرىٰ عليّ ووقع ما وقع إنّما صدر وجرىٰ إتماماً للحجّة عليّ، وتعريفاً لسعادتي وشقاوتي، وإظهاراً لما في كموني واستعدادي، وإبرازاً لما هو مقتضىٰ ماهيّتي وإنّيّتي، فيكون ذلك حجّة لك، ولا حجّة لي عليك.

قوله ﷺ: (وَثَاقِي) والوثاق ـ بالفتح والكسر ـ حبلٌ أو قيدٌ يشدّ به الأسير والدابّة.

قوله ﷺ: (يَا مَنْ بَدَأَ خَلْقِي وَذِكْرِي وَتَرْبِيَتِي وَبِرِّي وَتَغْذِيَتِي) ومعنى بدء الذكر: إنّك جعلتني مذكوراً بين الخلق ولم أكن شيئاً مذكوراً.

ومن الواجب ذكره واللائق سرده: أن أذكر ما يزيدك معرفة هذه النعم الجليلة، وأسرد ما يفيدك عظمة هذه المنن النبيلة فتزيد شكر المنعم المطلق، فأقول: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خلق الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[1] إنّ العناصر الأسطقسّية بعد ما تفاعل بعضها في بعض وتركّب بعضها مع بعض وتطوّر بأطوار حتّى صار غذاءً، أكله أبوك وفعل قواه فيما اغتذى كلّ فعله حسب أمر الله تعالى وإذنه، تحصل من كثير من ذلك الغذاء قليلٌ من الأخلاط، ومن كثير من الأخلاط أقلّ قليل من المنيّ هو صفوة الأخلاط وخالصتها، ويكون ذلك القليل من المنيّ منتشراً على الأعضاء كالدسومة والطلّ، فعند التهيُّؤ للوقاع مع الأنثىٰ اجتمع من ذلك المنيّ قدرٌ صالحٌ

---

١. العلق (٩٦): ١ ـ ٢.

إلى الانثيين بقوّة جاذبة فيهما، فينضج فيهما بحرارتهما الكامنة نضجاً تامّاً واعتدل اعتدالاً صالحاً، فتدفعه دافعة الرجل بالآلة المعدّة لذلك إلى رحم الأمّ، والرحم حينئذٍ مفتوح الفم جاذب المنيّ، فتستقرّه فيه إمّا في بطن الأيمن فيكون ذكراً، وإمّا في بطن الأيسر فيكون أنثىٰ، أو فيهما فيكون توأمين، فيمسكه الرحم بماسكته إمساكاً أشدّ، ويفعل فيه الحرارة الغريزة الكامنة فيه فعلاً صالحاً حسب ما ينبغي، فينضج نضجاً تامّاً ويتفرّق أجزاؤه المختلفة الطبيعة، وينضمّ كلّ جزءٍ إلى مشابهه، لكنّه لكونه في حشو الرحم ودم الطمث يكون محمّراً فيسمّىٰ علقة حمراء يحدث فيها ثلاث نقاط بيض من صفوة تلك الأجزاء: واحدة في موضع الدماغ، وأخرىٰ في موضع القلب، والثالثة في موضع الكبد، ويربط بينها بخطوط بيض رقاق دقاق كالأبريشم، ثم توجد فيه بالعناية الإلهيّة من مادّة تلك الأجزاء الأخلاطيّة الأعضاء السبعة الظاهرة: من الرأس والظهر والبطن واليدين والرجلين، والسبعة الباطنة: من الدماغ والقلب والكبد والرية وأعضاء التناسل والمرارة والطحال، فتؤخذ من تلك الأجزاء لخلق كلٍ من الأجزاء بقدر ما يليق به حسب العناية الربّانيّة، ويحيط بتلك العلقة غشاوة عصبيّة تحفظها من الانتشار، وهذا هو الدور المعدّى والصورة الحاصلة صورةً معدّية جمادية، وذلك في أربعين يوماً.

ثمّ إذا اعتدل مزاجه وبلغ المزاج المعدني غاية كماله، أفاض عليه الفيّاض المطلق الصورة النباتيّة والروح النباتي برؤسائه الثلاثة: من الغاذية والناهية والمؤلّدة، والخوادم الأربع: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة، والجنود الغير المحصورة ممّا أعدّ الله لتدبير التغذية والتنمية والتوليد، ثمّ يفتح له باب التغذّي ويرد عليه الغذاء من السرّة إلى معدة الجنين، فيأخذ الروح النباتي في فعله شيئاً فشيئاً حتّى يتكمّل ويصير معتدلاً صافياً، أكمل اعتدال وأشدّ صفاء، فيفيض عليه من الفياض القدس صورة كماليّة أشرف، هي صورة الحيوانيّة بقوّته الإدراكيّة

والتحريكيّة، من شأنها إفادة الحسّ والحركة للبدن. وهذا هو الدور الحيواني بعد الدور النباتي، والله ﴿يصوِّركم في الأرحام كيف يشاء﴾[۱] وهذا حديث اجمالي من التصوير الرحميّ يفصّله علم التشريح.

ثمّ يخرج المولود من بطن الأمّ إلى رحم الأرض متدرّجاً في الدور الحيوانيّ إلى الكمال درجةً فدرجةً، متقرّباً إلى حضرة ذي الجلال شبراً فشبراً، والحقّ القدس يتقرّب إليه ذراعاً فذراعاً، حتّى إذا قوى مزاجه، وكمل استعداده، وصفى طباعه أفاض عليه الفيّاض الأقدس صورة كماليّة أشرف وأبهى، وليس من جنابه خلعةً أكمل وأجمل وأسنى، هي الصورة الإنسانيّة والنفس الناطقة الملكوتيّة واللمعة النورانيّة والشعلة الشّعشعانيّة. وهذه الصورة البهيّة إنّما تفاض من المبدأ الفيّاض على قدر الاستعداد، فكلّما كان المزاج أتمّ وأعدل كان النفس أشرف وأقوىٰ؛ لما تحقّق وتقرّر أنّ بإزاء كلّ مادّة صورة يناسبُها، فأجودُ الكمالات لأتمّ الاستعدادات، وأخسّها لأنقصها.

وفي الحديث: «الناس معادنُ كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام»[۲] فكفىٰ في هذا الباب قول الخالق الحقّ جلّ شأنه: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ... والطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾[۳]. وقد أوردنا شطراً من الكلام في هذا المقام في كتابنا المسمّىٰ بـ«الحصن الحصين»[٤] في شرح كتاب البلد الأمين.

(أَتُرَاكَ مُعَذِّبِي بِنَارِكَ) الهمزة للإنكار، والتاء ضميرٌ مرفوع نائب عن المفعول، والكاف حرفُ خطابٍ لا محلّ لها، و«معذّبي» منصوبٌ مفعولاً ثانياً، ويحتمل أن يكون الكاف تأكيداً للتاء نائباً عن ضمير الرفع، ويحتمل بعيداً أن يكون الفعل

---

۱. آل عمران (۳): ۶.

۲. كنز العمّال ۱۰: ۲۸۷۶۱/۱۴۹ و ۲۸۸۷۹/۱۶۹.

۳. نور (۲۴): ۲۶.

۴. «الحصن الحصين» في شرح البلد الأمين في التوحيد، لجدّ المحقق الاصطهباناتي الأمّي، السيد جعفر الدارابي الكشفي المتوفى (۱۲۶۷ق)والبلد الأمين كتاب منظوم في العقائد. لم يطبعا إلى الآن. الذريعة ۷: ۲۴ و ۳: ۱۴۴.

مجهولاً من باب الإفعال، والكاف مفعولاً ثانياً، والمعنى: أنت ما تعلم نفسك معذّبي لأنّك لست بمعذّبي، بطريق السلب بانتفاع الموضوع، بل تعلم نفسك غير معذّبي فلا أحَدَ يُعلِمُكَ أنّك معذّبي، بمعنى أن يشير إليك غيرك بأن تعذّبي بنارك. هذا على تقدير ضمّ التاء وكون الفعل مجهولاً، وأمّا على فتحها وكون الفعل معلوماً فواضحٌ.

قوله ﷺ: (مَا هٰكَذَا الظَّنُّ بِكَ وَلَا أُخْبِرْنَا بِفَضْلِكَ عَنْكَ) أي ولا هكذا وصل إلينا الخبر بفضلك عنك بلسان رسولك؛ بل الواصل إلينا من خبر فضلك العفو والرحمة والمغفرة.

(وَلِمَا مِنْهَا) أي لا شيء من أهوال الآخرة (أَضِجُّ) وأتأوّه، وضَجَّ يَضجُّ إذا فزع فصاح، وإثبات ألف «ما» الاستفهاميّة المجرورة قليل نادر، والقياس حذفها، لكنّه في الأخبار كثيرٌ، وكذا إسقاط الهمزة[1] في بدله أضجَّ.

قوله ﷺ: (فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ) أي والله لا يصبر المحبّ على مفارقة المحبوب، ولا يطيق العاشق فراق المعشوق، ومفارقة الأحباب والله أشدّ من كلّ عذابٍ وأصعب من كلّ عقاب، ولنعم ما قال الشيخ عبدالله الأنصاري: «إلهى چون آتش فراق داشتى، به آتش دوزخ چه كار داشتى».

وانظر كيف جعل ﷺ فراق أولياء الله وأحبّائه فراق الله، وأدرج فراقهم في فراقه؛ وأشار بذلك إلى أنّ «من أحبّهم فقد أحبّ الله ومن أبغضهم فقد أبغض الله»[2].

قوله ﷺ: (وَهُوَ يَضِجُّ إِلَيْكَ ضَجِيجَ مُؤَمِّلٍ لِرَحْمَتِكَ) المدّخرة يوم القيامة ترحم بها عبادك المذنبين وتلك رحمة واسعة.

روي: «أنّ عيسى ﷺ مرّ بقبرٍ فرأى صاحب القبر معذّباً، فلمّا انصرف من حاجته

---

١. الظاهر أن المراد من «الهمزة» همزة باب الإفعال، ومن إسقاطها إتيان الفعل ثلاثياً مجرداً، وأضَجَّ القومُ: ضَجّوا.
٢. في زيارة الجامعة الكبيرة «ومن أحبّكم فقد أحبّ الله ومن أبغضكم فقد أبغض الله» الفقيه ٢: ٣٧٢.

رأى فيه ملائكة الرحمة معهم أطباق من نور فتعجّب من ذلك فأوحى الله إليه: إنّ هذا العبد كان عاصياً، وكان ترك إمرأة حبلى فولدت ولداً وربّته حتّى كبر فسلّمه إلى المعلّم فلقّنه بسم الله الرحمن الرحيم، فاستحييت من عبدي أن أعذّبه في بطن الأرض وولده يذكرني بالرحمة»[1]، فمن يكون في رحمته هذا كيف يكون في حقّ من يذكره بالرحمة دائماً ويدعوه بالرحمن الرحيم طول عمره ويؤمّل ويرجو رحمته في الآخرة؟!.

(وَيَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِرُبُوبِيَّتِكَ) أي بكونك ربّاً له شفيقاً عطوفاً رؤوفاً به، فإنّ الربوبيّة توجب الشفقة والعطف والرحمة على المربوب، فكيف إذا كان الربّ رحماناً رحيماً.

(أَمْ كَيْفَ تَزْجُرُهُ) إلى قوله: (هَيْهَاتَ) «أم» في هذا المواضع للإضراب المجرّد يعني: بل كيف تتركه في النار، و (تؤلِمُهُ) و (يُحرِقُهُ لَهيبُها) أي شعلها، و(يَشْتَمِلُ عَلَيهِ زَفِيرُها) أي داهيتها وبلاؤها و(يَتَقَلْقَلُ) أي يدخل (بَيْنَ أَطْباقِها) و (تَزْجُرُهُ زَبانِيَتُها) أي تدفعه خزنتها بمقامع من حديد إذا أراد أن يخرج منها من غمّ فيعاد فيها.

و(كَيْفَ يَرْجُوا فَضْلَكَ فِي عِتْقِهِ مِنْهَا فَتَتْرُكُهُ فِيهَا) إنّما غيّر الأسلوب وقدّم الرجاء على الترك بعكس ما سبق وكان السياق يقتضي أن يقول: كيف تتركه فيها وهو يرجو فضلك في عتقه منها؛ لأنّ التعجّب يقتضي ثبوت المتعجّب منه في الجملة؛ إذ لا وقع للتعجّب من شيءٍ معدوم وأمرٍ عدمي، فكان ما وقع بعد كيف كأنّه أمر ثابت من حقّه أن يتعجّب منه مع عدم إشعار فيه بثبوت قيده ممّا وقع بعد الضمير، وفيه شائبة رجحان الخوف ورائحة خلاف حسن الظنّ بالله، فقامﷺ ـ بعد تذكّر

---

۱. التفسير الكبير ۱: ۱۷۸: التاسعة عشرة: مرّ عيسى بن مريمﷺ على قبر فرأى ملائكة العذاب يعذّبون ميتاً، فلمّا انصرف من حاجته مرّ على القبر فرأى ملائكة الرحمة معهم أطباق من نور، فتعجّب من ذلك فصلّى ودعا الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه؛ يا عيسى، كان هذا العبد عاصياً ومذ مات كان محبوساً في عذابي، وكان قد ترك امرأةً حبلى فولدت ولداً وربته حتّى كبر، فسلّمته إلى المعلّم فلقّنه المعلّم «بسم الله الرحمن الرحيم» فاستحييت من عبدي أن أعذبه بناري في بطن الأرض وولده يذكر اسمي على وجه الأرض».

سالف رحمة الله وذكر ضعفه وعدم طاقته للعذاب وندائه ربّه باسمه العزيز ـ مقام الأنس، وانتقل من واد الخوف إلى محلّ الرجاء، واشتعرّ بقلبه الشوق، ولَبَس جلباب القرب، فعكس النظم وقدّم الرجاء وأخّر الترك، إشعاراً بأنّه نصبُ عينه وثابت قلبه، وأنّه الذي ينبغي أن يتعجّب منه إذا تفرّع عليه الترك. وهذا ممّا يشهد به الذوق ويصدّقه قولك: كيف يُسأل الكريم فلا يعطي.

إن قلت: ليس المتعجّب منه فيما سبق المقيّد بالحال في حدّ ذاته ولا قيده الحالي نفسه بل المقيّد بما هو مقيّد، فالتعجّب واقع على المقيّد والقيد مجتمعاً ومفيدٌ لثبوتها معاً، ولا مدخليّة للترتيب وعكسه كما ذكرت.

قلت: لو سلّم فالعناية والاهتمام بالرجاء المقتضي لتقديمه على ما بيّنت كافٍ وافٍ بالمقصود، فتأمّل واعرف أنّ الوجه رفع «تركُه» ولا وجه لنصبه كما توهّم؛ إذ ليس المقام مقام تقدير الناصب، لا وجوباً ولا جوازاً. اللهمّ إلّا أن يقدّر ويجعل العطف لمصدر مسبوك منه على مصدر متوهّم مسبوك من الفعل السابق، بأن يكون المعنى: كيف يكون منّي الرجاء ومنك الترك عقيبه «هيهات» أي بعد ما ذكر من الوقوع.

(مَا ذٰلِكَ الظَّنُّ) إلى قوله (مَقَاماً) ذكر فيها من باب التجريد بدخول في المنتزع منه كما في قوله تعالى: ﴿لهم فيها دار الخلد﴾[1] أي في جهنّم وهي دار الخلد، وفائدته التهويل والمبالغة في اتّصافها بالشدّة، والتجريد كما يكون بالباء يكون «بمن» و «في».

قوله ﷺ: (لٰكِنَّكَ) إلى قوله ﷺ: (لَايَسْتَوُونَ) ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[2].

---

١. فصّلت (٤١): ٢٨.

٢. السجدة (٣٢): ١٩ ـ ٢٠.

وفي تفسير النيشابوري يروي: أنّه شَجَرَ بين عليّ بن أبي طالب عليه السلام والوليد بن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام، فقال له الوليد: اسكت فإنّك صبي، فقال عليه السلام: «اسكت فإنك فاسق» فأنزل الله تعالى فيهما خاصّة وفي أمثالهما من الفريقين عامّة[1].

وأصل الفسق الخروج عن الشيء أو الخروج عن الطاعة، ويُطلق ويراد به الخروج عن طاعة الله، وهو الأشهر، ويقابل به العدل. وقد يطلق ويراد به الخروج عن دين الله وعدم الدخول فيه، ويقابل به الإيمان كما هنا.

وللكفر حدود ومراتب ودرجات وعلائم، مذكورة مفصّلة في مطوّلات القوم من الكلام والأخلاق، ولا مجال هنا لبيانها وتفصيل القول فيها، إلّا أنّا نحبّ أن نوشّح هذا الكتاب بذكر ما هو مهمّ في الباب، ولا يكون خالياً عن ما هو المطلوب لأولي الألباب.

فنقول: اعلم أنّه قد اختلف عبارات العلماء المحقّقين الفحول وكلمات الفضلاء ذوي الأنحاء والعقول في حدّ الإيمان ودرجته، وكيفيّة تحصيله، من اعتبار القطع والظنّ، واعتبار الاستدلال والاجتهاد والتقليد، وقدر ما يحصل به الإيمان من المعارف، ووجوب تحصيله وجوباً مطلقاً أو مشروطاً، وحال العاجز عن النظر ومن هو في مهلة النظر وزمانه، وكذا في حدّ الكفر ودرجاته، إلى غير ذلك من مباحث الايمان والكفر.

وملخّص الكلام في تحرير المقام: إنّ الإيمان لغة: التصديق والإذعان، ويتعدّى باللام والباء، وهو من الأمن بمعنى سكون النفس واطمئنانها، لعدم ما يوجب الخوف لها.

وشرعاً:قيل: هو التصديق بالقلب فقط[2]، واختاره أكثر الإماميّة، وقيل: هو التلفظ

---

١. غرائب القرآن(في هامش جامع البيان) ٢١: ٧٢؛ الكشّاف ٣ : ٥١٤؛ وفي «الكاف الشاف» بذيل الكشّاف: أخرجه ابن مردويه والواحدي من رواية سعيد بن جبير عن ابن عبّاس. وانظر التبيان ٨:٢٧٥.

٢. نسبه العلّامة في مناهج اليقين (ص٣٦٧) إلى الأشعريّة.

بالشهادتين فقط[1]، وقيل: هو جميع أفعال الجوارح من الطاعات بأسرها فرضاً ونفلاً[2]، وقيل: هو جميع الواجبات وترك المحظورات[3]، وقيل: هو التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان[4]. وذهب إليه جمع من السلف والمحدّثين. وقيل: هو التصديق مع كلمتي الشهادة، وقيل: هو التصديق بالقلب مع الإقرار باللسان. وهذه الأقوال بدلائلها وحُججها مذكورة في حقائق الإيمان[5] للشهيد الثاني.

والأظهر هو الأوّل ـ كما اختاره المحقّق الطوسي طاب ثراه في فصوله ـ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[7]، فيكون حقيقةً فيه، فلو أطلق على غيره لزم الاشتراك أو المجاز، وهو خلاف الأصل، مع أنّه بالنسبة إلى المعنى اللغويّ على هذا يكون تخصيصاً، وعلى غيره يكون منقولاً، والتخصيص خير من النقل. نعم، الإقرار باللسان كاشف عنه، والأعمال الصالحة ثمراته.

ثمّ إنّ التصديق ـ على ما أفاده بعض المحقّقين ـ عبارة عن ربط القلب على ما علم من إخبار المخبر، وهذا أمرٌ كسبيّ يحصل باختيار المصدّق؛ هذا.

وهو معنى ما ذكره بعض العلماء من أنّ التصديق هو أن تنسب باختيارك الصدق إلى المخبر، ولذا يثاب عليه ويجعل رأس العبادات، بخلاف المعرفة فإنّها قد تحصل بدون الكسب كمن وقع بصره على شيء فعرفه، ولهذا لم يعرف الإيمان بها لكونها أعمّ من الاختياري. والإيمان الاختياري كسبيّ، والتعريف

١. نسبه العلّامة إلى الكراميّة، مناهج اليقين: ٣٦٧.
٢. نسبه العلّامة إلى الجبائيان وأتباعهما. المصدر.
٣. نسبه العلّامة إلى القاضي عبدالجبار، وأبوالهذيل العلّاف. المصدر.
٤. نسبه العلّامة إلى جماعة السلف والشيخ المفيد رحمه الله، مناهج اليقين: ٣٦٧.
٥. حقائق الإيمان: ٥٠ـ٥٨.
٦. الجادلة (٥٨): ٢٢.
٧. الحجرات (٤٩): ١٤.

بالأعمّ منكَرٌ عند أهل المعرفة.

وقد يقال: المعرفة والتصديق بمعنى واحد لأنّ الكلام في الاعتقاد، وهو متضمّنٌ للنسبة والقبول والحكم والإثبات والإيقاع والإذعان، فالمعرفة المرادة هنا هي المعرفة التصديقيّة، لا في مطلق الإدراك والعلم الشامل لمطلق المعرفة والتصوّر، وأنّ الاختيارية والاكتسابيّة فيهما إنّما هي باعتبار أسباب الإدراك ومباشرة الأسباب وصرف النظر ورفع الموانع وعدمها، على أنّ الإيمان لا يشترط تحقّقه بالاكتساب والاختيار، فإنّ مَن حصل له العلم بصدق المخبِر بمجرّد مشاهدة المعجزة وصفاء النفس من دون اكتساب وإعمال نظرٍ وتجشمّ استدلال تَحقَّق له الإيمان قطعاً، إلّا أنّ هذا الفرد نادر لا يحصل إلّا لذوي الأنفس القدسيّة، فكأنّه معدوم ولهذا أعتبروا في الإيمان الاختيار، وعرّفوه بما هو ظاهر في الاكتساب أعني التصديق دون المعرفة؛ فتأمّل.

وأمّا قضيّة الإثابة، فالكسبي منه يثاب على تحصيله وإثباته وإدامته.

وأمّا غير الكسبي فإنّه وإن لم يتحقّق للعبد فيه فعل لكنّه يثاب على العزم على البقاء عليه وعلى آثاره واستدامة حكمه فإنّه فعله.

وأمّا كيفيّة حصول الإيمان والتصديق الشرعي فالأقوال فيه ستّةٌ :

الأوّل: اعتبار حصوله على سبيل القطع واليقين من النظر والاستدلال. وهو المعروف عن الأكثر[1]، وادّعىٰ عليه العلّامة‌ؒ إجماعَ العلماء كافّة[2].

الثاني: اعتبار العلم مطلقاً ولو من التقليد[3].

---

١. كالشيخ الطوسي في العدّة ٢: ٧٣٠، والمحقق في المعارج : ١٩٩ والشهيدان في الألفيه وشرحها، المقاصد العلية : ٣٨.

٢. الباب الحادي عشر : ٣ ـ ۴.

٣. نسبه الشهيد الثاني في المقاصد العلية (۴٥ ـ ۴٦) إلى جماعة من المحقّقين منّا ومن الجمهور.

الثالث: كفاية الظنّ مطلقاً. واختاره المحقّق الطوسي والأردبيلي والمجلسي والمحدّث الكاشاني[1]، أحسن الله في الملإ الأعلى ذكرهم.

الرابع: كفاية الظنّ من النظر والاستدلال دون التقليد. واختاره البهائي[2] زاد الله بهاءه.

الخامس: الظنّ المستفاد من أخبار الآحاد، وهو الظاهر من الأخباريّين[3].

السادس: كفاية الجزم بل الظنّ من التقليد مع كون النظر واجباً مستقلاً، لكنّه إذا ترك النظر وحصل له الجزم كفاه وعفي عنه ولم يعاقب. حكي عن الشيخ طاب رمسه، في العدّة[4]. وهٰذه الأقوال حكاها الشيخ الجليل المرتضى الأنصاري[5] طاب ثراه، وأفاد هو ﷺ في هذا الباب تحقيقاً رشيقاً.

ملخّصه:إنّ مسائل أصول الدين التي لا تطلب أوّلاً وبالذات إلّا الاعتقاد قسمان: قسم يجب على المكلّف اعتقاده والتديّن به مطلقاً، وقسم يجب عليه اعتقاده بشرط حصول العلم به، بمعنى أنّه لو حصل العلم به وجب عليه اعتقاده وإلّا فلا.

والقسم الأوّل لكونه واجباً مطلقاً يجب تحصيل مقدّماته من العلم إن أمكن، وإلّا فالظنّ الاطمئناني بالاجتهاد إن أمكن، وإلّا فبالتقليد لوجوب مقدّمة الواجب المطلق كما حقّق في الأصول.

وأمّا الثاني فلكونه واجباً مشروطاً لم يجب تحصيل مقدّماته، فإن اتّفق له حصول العلم فذاك وإلّا فلا يعتبر فيه الظنّ مطلقاً؛ لعدم دليل على حجيّته في المقام[6].

---

١. حكاه عن أكثرهم ـ أيضاً ـ المحقق القمّي في القوانين ٢: ١٨٠، والفاضل النراقي في المناهج: ٢٩٣، وانظر مجمع الفائدة والبرهان ٢: ١٨٣؛ والزبدة: ١٢٤.

٢. حكى الشيخ الأنصاري حكايته عنه في بعض تعليقاته على شرح المختصر: أنّه نسبه إلى بعض؛ فرائد الأصول ١: ٥٥٥.

٣. انظر عدّة الأصول ١: ١٣١.

٤. عدّة الأصول ١: ١٣٢ و ٢: ٧٣١.

٥. فرائد الأصول ١: ٥٥٣ ـ ٥٥٥.

٦. فرائد الأصول ١: ٥٥٥ ـ ٥٨٤.

وأقول: وأمّا وجوب تحصيل الاعتقاد في القسم الأوّل وجوباً مطلقاً فعقليّ يَحكم به العقل؛ لوجوب شكر المنعم الموقوف على معرفته كما تقرّر في المعقول، وليس ذلك شرعيّاً محتاجاً إلى السمع فيدور.

وأمّا إلغاء الظنّ رأساً بعد انسداد العلم في القسم الثاني فمحلّ كلام، فإنّه إذا سمع الرجل خبراً من عادل عن معصوم فيما يتعلّق بغير ما يعتبر في حدّ الإيمان الواجب من مسائل الأصول والمعارف المبدئيّة والمعاديّة، فحصول الظنّ له منه قهريّ غير اختياري لا يكلّف بتحصيله وعدمه، وأمّا التديّن به وإظهاره باللسان فلا مانع منه شرعاً لا من العقل ولا من النقل.

نعم، إنّ الله تعالى ذمّ قوماً اتّبعوا الظنّ، وإنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئاً، ونهى عن اتّباع ما لا علم به[1] فقال: ﴿لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[2] لكن في شموله لما قلناه نظرٌ؛ فتأمّل.

وتفصيل الكلام في المقام: إنّ المكلّف الملتفت إلى مسألة أصوليّة ومعرفة إلهيّة إمّا يكون متمكّناً من تحصيل العلم قادراً عليه، أو لا.

والأوّل حكمه التكليفي تحصيل العلم لا غير؛ للآيات والأخبار الكثيرة[3] في وجوب المعرفة والإيمان في العلم والتفقّه والتصديق والشهادة، وعدم الرخصة في الجهل والشكّ ومتابعة الظنّ، فإن تسامح واقتصر على الظنّ فهو غير مؤمن قطعاً.

وهل هو كافر؟ فيه وجهان: من إطلاق ما دلّ على عدم الواسطة وأنّ غير المؤمن كافر[4]، ومن أخبار تدلّ على الواسطة وأنّها الضلال[5]. هذا إذا ظنّ بالحقّ.

---

١. الآيات ١١٦ و ١٤٨ من سورة الأنعام و ۶۶ من يونس، و ٢٣ و ٢٨ من سورة النجم.

٢. الإسراء (١٧): ٣۶.

٣. راجع الكافي ١: ۴٧ باب لزوم الحجّة على العالم وتشديد الأمر عليه.

۴. راجع الكافي ٢: ۶/١٨ و ٩/٢١ وبعده؛ والوسائل ١٨: ٢٢/٥۶١، ٥٢ ـ ٥٣ و ٥۶، الباب ١٠ من أبواب المرتدّ.

٥. انظر الوسائل ١٨/٥۵۶ و ٥۶٨، الباب ١٠ من أبواب المرتد.

وأمّا إذا ظنّ بالباطل أو شكّ في الحقّ فلا شكّ في أنّه كافرٌ نجسٌ، لأنّ الإيمان هو الاعتقاد بالحقّ كما سبق.

وأمّا إذا نظر واجتهد وحصل له الجزم بالباطل، فهو كافر نجسٌ في الدنيا. وهل هو معاقب في الآخرة أم لا؟ الأظهر لا، وفاقاً للمحقّقين، ولا يبعد أن يقام عليه الحجّة يوم القيامة.

أمّا إذا لم يقتصر على الظنّ ولا حصل له الجزم بالاستدلال والنظر، بل اقتصر على الجزم بالحقّ بالتقليد ولو بتقليد من لا يجوز تقليده، فالظاهر كفايته في إيمانه وأنّه بذلك مؤمن ـ وإن ادّعىٰ العلّامة الإجماع على خلافه وخروجه عن ربقة الإسلام[1] ـ لعدم الدليل على اعتبار الزائد على العلم والمعرفة والتصديق والشهادة، وتقيّدها بطريق خاصّ لا دليل عليه، والإجماع المدّعى على ذلك ممنوع؛ بذهاب كثير من العلماء إلى خلافه، مع أنّه ليس بحجّة في الأُصول.

على أنّ النظر والاستدلال بالعقليّات لا تفيد الجزم لكثرة الشبهات الحادثة في النفس، والمدوّنة في الكتب، وسذاجة النفس وسلامته وطمأنينته في الحقّ أحقّ وأولى. هذا حال المتمكّن من العلم.

وأمّا غير المتمكّن كأكثر أهل القرى والبوادي، فإذا رجع إلى العالم ورأى العالم منه المتمكّن[2] من الظنّ ولم يَخَفْ عليه إفضاء نظره إلى الباطل، فأولى[3] التزامه بتحصيل الظنّ؛ لأنّ انكشاف الحقّ بالظنّ أولىٰ من التوقّف فيه.

ويشكل بأنّه إيجابٌ لما لا يجب؛ إذ لا دليل على عدم جواز التوقّف، ووجوبِ تحصيل الظنّ عند العجز عن العلم كالفروع.

١. الباب الحادي عشر: ٣ ـ ٤. قال: «قد أجمع العلماء على وجوب معرفة الله وصفاته الثبوتية وما يصحّ عليه وما يمتنع عنه، والنبوّة والإمامة والمعاد بالدليل لا بالتقليد».

٢. كذا في النسخة، والظاهر: التمكن.

٣. كذا في النسخ، والظاهر الصبح: «فالأولى».

ويجاب بأنّه من باب الإرشاد، ووجوبه بعد الاسترشاد مسلّمٌ.

وأمّا إذا لم يرجع إلى العالم فحكمه التوقف.

وأمّا أنّه مؤمن حينئذٍ أم لا؟ ففيه كلام، والحقّ أنّه ليس بمؤمن؛ لعدم الاعتقاد له، وليس ببعيد وعزيز على الله في حكمته وعدله أن لا يعذّبه في الآخرة ولا يخلّده في النار؛ لعدم كونه مقصّراً في تكليفه.

وأمّا حكم المكلّف في زمان مهلة النظر وتحصيل الاعتقاد حيث إنّ المعارف نظريّة محتاجة إلى النظر والزمان، فعن السيّد المرتضى﵀ الجزم بكفره[1]، ولعلّه نظر إلى أنّ من لم يكن له اعتقاد بالحقّ فهو كافر، ويَلزم الحكمَ بكفر كلّ أحدٍ أوّلَ زمان تكليفه بالمعرفة؛ إذ النظر قبله لا عبرة به، وأن يكون مخلّداً في النار إن أدركه الموت في تلك الحالة.

ولا يخفى بُعد ذلك عن عدل الله تعالى شأنه.

اللّهمّ إلّا أن يقال: إنّ هذا النوع من الكفر لا يعذّب صاحبه، والإجماع على أنّ كلّ كافر مخلّد في النار مخصوص بمن كان كفره عن اعتقاد. واحتمل الشهيد﵀ أن يدخِله الله الجنّة تفضّلاً كالأطفال[2].

والذي يقتضيه النظر أن يقال: المكلّف الملتفت إلى الحقّ إذا اشتغل بتحصيل الحقّ لا يخلو، إمّا أن يكون مسبوقاً باعتقاد الكفر والباطل، أو لا يكون كذلك، سواء كان متردّداً في شيء أو كان أوّل زمان عقله واقتراع سمعه بالحق.

فيحكم على الأوّل بالكفر حتّى يترجّح ويعتقد الحقّ، وعلى الثاني لا يحكم بكفر ولا إيمان، بل هو بحكم الأطفال إلى أن يمضي عليه زمان يمكنه فيه النظر

---

۱. جوابات المسائل الرسية الأولى (رسائل الشريف المرتضى) ۲:۳۱۷.

۲. حقائق الإيمان: ۱۳۴.

التامّ الواصل إلى الحقّ فيكون مقصّراً في ذلك. هذا هو الذي اختاره الشهيد طاب ثراه[۱]؛ فتأمّل.

وأمّا تعيّن زمان التكليف ووجوب تحصيل المعرفة: فاعلم أنّ المتكلّمين حدّدوا وقت التكليف بالمعرفة بالتمكّن من العلم بالمسائل الأصوليّة، وشرطوا في التكليف أن يكون المكلّف قادراً على ما كلّف به، مميّزاً بينه وبين غيره، سواءً وافق ذلك تحقّق البلوغ الشرعي بإحدى العلامات المذكورة في الفروع أم لا، بل قد يكون قبل ذلك بسنين أو بعده كذلك بحسب مراتب الإدراك قوّةً وضعفاً.

وبعض الفقهاء حدّد وقت التكليف بالمعارف بوقت التكليف بالأعمال وسوّىٰ بينهما، إلّا أنّه يجب بعد البلوغ المسارعة إلى تحصيل المعارف قبل الإتيان بالأعمال[۲].

ويرد عليه: أنّه يلزم أن يكون الإناث أكمل من الذكور؛ لأنّ الأنثىٰ تخاطب بالعبادات عند كمال التسع، والذكر عند كمال خمسة عشر فلا يخاطب بالمعرفة وإن كان مميّزاً عاقلاً إلّا بعد خطاب الأنثىٰ بزمان، وهو بعيد عن مدارك العقل والنقل، ومن ثمّ ذهب الشيخ الطوسي‌ؒ ـ على ما نسب إليه ـ إلى وجوب المعرفة على من بلغ عشراً[۳].

ويشكل بأنّ الصبيّ لا يجب عليه شيء، وحديث رفع القلم عن الصبيّ مسلّمٌ. اللّهم إلّا أن يفرّق بين الوجوب الشرعيّ فينتفي عنه، والوجوب العقلي فيثبت عليه، وفيه تأمّل، مع أنّ حكم العقل لا يحكم بتحديد الزمان؛ فتأمّل.

ثمّ إنّ العقل الذي هو مناط التكاليف عبارةٌ عن قوّة للنّفس، بها تستعدّ للعلوم والإدراكات، وقيل: إنّه ما يَعرف حُسن الحَسَن وقُبح القَبيح، وقيل: إنّه العلم ببعض

۱. حقائق الإيمان: ۱۳۴.
۲. انظر حقائق الإيمان: ۱۳۵.
۳. المصدر: ۱۳۶.

الضروريّات[1].

هـذا، وأمـا الأطـفال فـمحكومون بـحكم آبـائهم فـي آثـار الكـفر والإيـمان وملحوقون بهم في الدنيا والآخرة عند قوم، ويُحكمون بحكم آبائهم في الدنـيا ويحشرون في الآخرة بلا ثواب ولا عقاب كالحيوانات عند قوم، ولا يـحشرون أصلاً عند قوم.

وعند الأشاعرة: إنّ الله يؤجّج ناراً ويأمرهم باقتحامها، فـمن اقـتحم قـال الله تعالى: هو الذي لو أمر به في الدنيا بشيء لامتثل فيأمر به إلى الجنّة، ومن لم يقتحم قال الله تعالى: هو الذي لو أمر به في الدنيا بشيء لم يمتثل، ويحتمل أن يكون في نعيم دون نعيم الجنّة. هذا هو الكلام في أصل الإيمان.

وأمّا مقدار ما يجب الإيمان والتصديق به بحيث يكون فاقده داخلاً في حـدّ الكفر فالمستفاد من أخبار الأئمّة عليهم السلام وكلمات العلماء الأخيار قدّس الله أسرارهم: أنّه يكفي الإيمان والتصديق بوجود الله ـ جلّ شأنه ـ ووجوبِ وجوده ووحدانيته وقدمه ذاتاً، وأنّه عادل لا يصدر منه القبيح فعلاً ولا تركاً، وأنّه عالم بكلّ شـيء وقادر على كلّ شيء، ولا يحتاج إلى شيء؛ ويعرف الرسولَ بشـخصه ووصـفه ونصبه بالرسالة من الله، وعصمته من الخطإ، وصدقه في جميع ما جاء به، إن علم به إجـمالاً، وإن عـلم تـفصيلاً فـيصدّقه تـفصيلاً كـالمعاد الجسـماني والصـراط والحساب والميزان والجنّة والنار.

والمراد بمعرفة هذه الأمور: ركوزها في ذهن المكلّف بحيث إذا سئل عنه أجاب بما هو الحقّ وإن لم يعرف التعبير عنه بالعبارات المتعارفة على ألسنة الخواصّ.

وأمّا معرفة الأئمّة الاثنى عشر والتصديق بإمامتهم ووجوب إطـاعتهم، فـعند

---

١. انظر حقائق الإيمان: ١٣٧ ـ ١٣٨؛ و المحجّة البيضاء ١: ١٧٧ ـ ١٧٨. بيان حقيقة العقل وأقسامه.

الإمامية والفرقة الناجية من أُصول الإيمان، يحكم بكفر فاقده وإن أقرّ بالشهادتين، والأخبار الخاصّة المفيدة لذلك كثيرة جدّاً، مثل قول النبي ﷺ المعروف والمشهور بين الفريقين: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة الجاهليّة»[١]. وأهل الخلاف إذا سئلوا عن إمام زمانهم لسكتوا قطعاً ولم يجدوا إلى الجواب سبيلاً، وكفى به لهم جهالة وضلالاً.

والقول بأنّها واجبة استقلالاً على من هو متمكّن منها بحسب الاستعداد، لما في الأخبار الكثيرة من وجوب معرفة الأئمّة ﷺ وأنّها أفضل من الصلوات الواجبة، فيكون معرفتهم من الفروع، كأنّه ليس منّا الإماميّة، كما يشعر به كلام المحقّقين؛ بل ذلك القول من العامّة... كما صرّح به الشهيد[٢] طاب ثراه.

واعلم أنّ جمعاً من العلماء الإماميّة حكموا بإسلام أهل الخلاف[٣]، فإن أرادوا بذلك كونهم مسلمين في الظاهر، مترتّباً عليه أحكام الإسلام كحلّ مناكحتهم، وطهارتهم، وحقن دمائهم وأموالهم، للتخفيف على المؤمنين؛ لمسيس الحاجة إلى مخالطتهم في أكثر الأزمنة والأمكنة؛ لا أنّهم مسلمون في نفس الأمر، فلا بأس به ولا نضائق من موافقته.

وإن أرادوا أنهم مسلمون في نفس الأمر، فهو مخالف لما اتّفق عليه الكلّ من كونهم مخلّدين في النار، والخلود شأن الكفّار.

قال سيّد العلماء طاب ثراه في الرياض: «وحيث قد عرفت انحصار أدلّة نجاسة الكفّار في الإجماع وفحوىٰ الأخبار، وظهر لك وجه قوّة القول بطهارة من عدا

١. الكافي ١: ٣٧٦، باب من مات وليس له إمام،... و ٢: ٢٠ و ٢١، باب دعائم الإسلام.
٢. راجع حقائق الإيمان: ١٤٩ ـ ١٥٩. مكتبة آية الله المرعشي.
٣. انظر جواهر الكلام ٤: ١٣٧ ـ ١٣٨. مؤسسة النشر الإسلامي.

الخوارج والغلاة والنواصب من فرق المسلمين، وهو المشهور بين الأصحاب لأصالة الطهارة وعدم الإجماع المخرج عنها في المقام، مع لزوم الحرج على تقدير النجاسة، والإجماع على عدم احتراز الأئمّة والأصحاب عنهم على حدٍّ يظهر عدم كونه من جهة التقيّة، مضافاً إلى النصوص المستفيضة بل المتواترة [الحاكمة] بحلّ ما يوجد في أسواق المسلمين وطهارتها، مع القطع بندرة الإماميّة في جميع الأزمنة [سيّما أزمنة] الصدور، وأنّه لا ينعقد لخصوصهم سوق. هذا في الظاهر[1]. انتهى ملخّصاً.

ولا يذهب عليك أنّ حكم الإسلام على من خالف الحقّ إنّما يجري ما دام حيّاً؛ فإذا مات زال عنه حكم الإسلام وصار كالجمادات فلا يجب غسله ولا كفنه ولا دفنه، بل قيل بحرمته إذا أريد إكرامه إلّا لتقيّةٍ[2]، وإن غُسّلَ لم يزل نجاسته الموتيّة، ولم يطهّر جسده النجس بالموت، ولا يصلّىٰ عليه كما اختاره جمعٌ من فقهائنا الأخيار طاب ثراهم، فاتّبِع الحقّ ولا تذهل عنه.

(إِلٰهي وَسَيِّدي فَأَسْأَلُكَ بِالْقُدْرَةِ الَّتي قَدَّرْتَها) القدرة: الغنى والوسعة والقوّة، والمراد هنا المنّة السابقة والنّعمة السابغة والرحمة الواسعة، حيث أوجد الإنسان ووفّقه للعلم والعمل وأذّنه في التصرف في مملكته، وأجازه في دعائه ومناجاته، وفتح له باب رحمته ورضوانه وغفرانه، كلّ ذلك عطاء وقدرة قدّرها في سابق علمه ومبرم حكمه. أو المراد القدرة المخلوقة في الخلق التي تصدر منهم الأفعال والأقوال، وهي آيات قدرته.

قوله ﷺ: (بِالْقَضِيَّةِ الَّتي حَتَمْتَها وَحَكَمْتَها وَغَلَبْتَ مَنْ عَلَيْهِ أَجْرَيْتَها) أي بحكمك

---

١. رياض المسائل ٢: ٣٥٩. أعداد النجاسات، مع التلخيص.

٢. انظر جواهر الكلام ٤: ١٣٥ ـ ١٤١، مؤسسة النشر الإسلامي.

المحكم وأمرك المحتوم في عالم القضاء الأزلي، الجاري على كلّ شيء بما يليق به ويستعدّه، ولا يتأتّى ولا يتعصّى منه شيء لأنّه أمرٌ بلا واسطة فلا سبيل إلّا (أَنْ تَهَبَ لِي) أي تغفر لي وتعفو عنّي (فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ) ليلة النصف من شعبان، وهي ليلة مباركةبالخير والشرف معروفة، وقد حصلت الإذن والرخصة في تلاوة هذا الدعاء الشريف في ليلة الجمعة بل في كلّ ساعة من الساعات وآنٍ من الآنات أيضاً.

(وَفِي هٰذِهِ السَّاعَةِ كُلَّ جُرْمٍ أَجْرَمْتُهُ) الجُرم بالضم: الذنب، وإجرام الجرم اكتسابه كما أنّ إذناب الذنب ارتكابه.

(وَكُلَّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ وَكُلَّ قَبِيحٍ أَسْرَرْتُهُ وَكُلَّ جَهْلٍ عَمِلْتُهُ) اكتسبته أو كلّ عمل عملته بجهلي، ودعاني إلى ارتكابه جهلي. والمراد بهذا الجهل هو الملكة النفسانية الرديئة الداعية إلى الشرّ والفساد والسيّئة، والخطيئة مقابل العقل الذي يكتسب به الجنان ويعبد به الرحمن.

وعلى تقدير الأوّل المراد به الجهل العرضيّ المكسوب بالأعمال الرديئة والأفعال القبيحة والعقائد الباطلة؛ فإنّ الجهل يتدرّج في الكمال ويشتدّ في التجوهر شيئاً فشيئاً، يتراكم السيئات والقبائح حتّى يصير جوهراً جهلانيّاً وبحراً أجاجيّاً صرفاً فيجعل في جهنّم، كما أنّ جوهر العقل متحصّل من نور على نور من أنوار المعارف الحقّه والأعمال الصالحة والخيرات المترادفة فيرجع إلى الجنّة. [و] أصل الجهل عدم العلم فهو ظلمة للقلب كما أنّ العلم نور له، وقد يعبّر عنه بغطاء القلب والحجاب المضروب بينه وبين الربّ المانع عن مشاهدة جماله وجلاله.

(كَتَمْتُهُ) إلى قوله ﷺ: (مَا يَكُونُ مِنِّي) الكرام الكاتبين: الملكان الموكّلان بالإنسان من جانب الرحمن، يبادرون بكتابة الحسنات ويتوانون بكتابة السيّئات لعلّ العبد يستغفر ويتوب. وإنّما يسمّيان كراماً لأنّهم يسترون عيوب العبد ولا يشهدون بها

ولا يذكرونها، ويقولون: إلٰهَنا، أنت ستّار العيوب، وأمرت عبادك أن يستروا عيوبهم ونحن نستر عيوبهم وأنت علّام الغيوب.

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل: ما علّة الملكين الموكّلين بعباده يكتبون ما عليهم ولهم، والله تعالى عالم السرّ وما هو أخفى؟ قال: «استعبدهم بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة الله مواظبةً، وعن معصيته أشدّ انقباضاً، وكم من عبدٍ يهمّ بمعصيته فذكر مكانهم فارعوى وكفّ ويقول: ربّي يراني، وحفظتي عليّ بذلك تشهد»[1].

(وَجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوَارِحِي) كما قال تعالى: «اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ»[2].

(وَكُنْتَ أَنْتَ) إلى قوله عليه السلام: (يَا مَنْ بِيَدِهِ نَاصِيَتِي) الناصية قصاص الشعر فوق[3]، والكلام تمثيل لكونه في قبضة خالقه وتحت قدرته وسلطانه.

قوله عليه السلام: (يَا عَلِيماً بِضُرِّي وَمَسْكَنَتِي يَا خَبِيراً بِفَقْرِي وَفَاقَتِي) ولمّا فرغ من مقام التخلية عن الرذائل ومقام التحلية بالفضائل دخل باب التجلية والاستشراق بالنور المشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره.

ساقي حديث سرو وگل و لاله می رود .....

فالتفت إلى الحقّ القدس بشراشر وجوده، وانقطع عمّن سواه حذافيره، وانتقل من الاغتراب إلى الاقتراب فقال: (يَا رَبِّ يَا رَبِّ يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّكَ) أي بوجوب وجودك وثبوت ذاتك وآياتك عن تطرّق الفساد والبطلان (وَقُدْسِكَ) أي طهارة ذاتك ونزاهتك عن العيوب والنقائص.

---

۱. بحارالأنوار ۵:۳۲۳/ ۱۰، عن الاحتجاج.

۲. يس (۶۵): ۳۶.

(۳) «الناصية عند العرب منبت الشعر في مقدّم الرأس» لسان العرب ۱۵: ۳۲۷ (نصا)

(وَأَعْظَمِ صِفَاتِكَ وَأَسْمَائِكَ) إنّ مبدأ الاشتقاق من المعاني الكماليّة المطلقة على الله تعالى هي صفاته العليا كالعلم والقدرة، والمشتقّات الصادقة عليه تعالىٰ كالعالم والقادر هي أسماؤه، وقد يقال: أعظم صفات الله الربوبيّة، وفي أسماء الصفات أعظمها اسم الربّ، وأعظم أسماء الذّات اسم الله. ولقد أجاد فيما أفاد جدّي الأمجد في سنا برقه[1] حيث دلّل على أنّ الصفات العظمىٰ والأسماء الحسنىٰ أئمّتنا الكرام آل محمّدﷺ، وأشبع القول فيه بما لا مزيد عليه.

(أَنْ تَجْعَلَ أَوْقَاتِي فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِذِكْرِكَ مَعْمُورَةً) ومستغرقة غير فارقة ولا خالية عن ذكرك (وَبِخِدْمَتِكَ) وعبادتك والقيام بوظائف عبوديّتك (مَوْصُولَةً) غير مفصولة ولا مقطوعة.

(وأَعْمَالِي عِنْدَكَ مَقْبُولَةً) فيزيد في توفيقك ويشملني عنايتك، وتجعل قلبي مستعدّاً لحصول نور على نور وانشراح فوق انشراح، ويفرغ ويتخلّى عن سواك.

(حَتَّى تَكُونَ أَعْمَالِي) وأفعالي (وَأَوْرَادِي) وأقوالي. والورد: الخبر والقرآن (كُلُّهَا وِرْداً وَاحِداً وَحَالِي فِي خِدْمَتِكَ سَرْمَداً) فلا أذكر إلّا إيّاك ولا أتوجّه إلّا إليك، كما قال ولده السيّد السجّاد؈ في بعض مناجاته: «قدِ انقَطَعَتْ إلَيكَ هِمَّتي، وَانْصَرَفَتْ نَحْوَكَ رَغْبَتِي فأَنْتَ لا غَيْرُكَ مُرادي، ولَكَ لا لِسواكَ سَهَري وسُهادي [....] ورِضاكَ بُغْيَتي، ورُؤْيَتُك حاجَتي، وجِوارُك طِلْبَتي، وقُرْبُكَ غايَةُ مسألتي وفي مُناجاتِكَ رَوحي وراحَتي، وعندك دواءُ عِلَّتي وشَفاءُ غُلَّتي و بَرْدُ لَوعَتي وكَشفُ كُرْبَتي»[2].

(يَاسَيِّدِي يَا مَنْ عَلَيْهِ مُعَوَّلِي) واعتمادي (يَا مَنْ إِلَيْهِ شَكَوْتُ أَحْوَالِي يَارَبِّ يَارَبِّ يَارَبِّ قَوِّ) أمرٌ من التقوية (عَلَى خِدْمَتِكَ جَوَارِحِي وَاشْدُدْ عَلَى الْعَزِيمَةِ جَوَانِحِي) العزم: قصد الفعل والجهد فيه. والجوانح: هي العظام المحيطة بالقلب من عظام الصدر

١. مخطوط
٢. الصحيفه السجادية الجامعة: الدعاء ۱۸۹/۷.

والأضلاع. وأريد بها القلب مجازاً تسميةً للحال باسم المحلّ.

(وَهَبْ لِيَ الْجِدَّ فِي خَشْيَتِكَ) أي في اكتساب ما يوجب خشيتك من العلم بك والمعرفة بحقّك وصفاتك. والخشية في اللغة: الخوف، وفي عرف أهل المعرفة: حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته وخوف الحَجْب عنه. وقد يفسّر الخشية بالإكرام والإعظام، ويحمل عليه قراءة من قرأ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] برفع الله ونصب العلماء.

(وَالدَّوَامَ فِي الاِتِّصَالِ بِخِدْمَتِكَ حَتَّى أَسْرَعَ إِلَيْكَ) أي أسرع إليك وأسبق إلى جنابك.

قوله ﷺ: (فِي مَيَادِينِ السَّابِقِينَ) الراهنين على السبق إليك والتقرّب إلى حضرتك. والميادين جمع ميدان، والمراد عرصة المسابقة.

(وأُسْرِعَ إِلَيْكَ فِي الْمُبَادِرِينَ وأَشْتَاقَ إِلَى قُرْبِكَ) ومشاهدة جمالك (فِي الْمُشْتَاقِينَ) من فزع قلبه للمحبوب، وخلّى سرّه للمطلوب، ودام في خدمته بجوارحه، وجدّ في خشيته بجوانحه، وقرع بابه بالرغبة إليه، ودّق خلقته بالرهبة عنه، ولجّ في طلبه، وأصرّ على قصده؛ فإنّه سيسفر له عن وجهه، ويكشف له عن نقابه، ويرفع عنه حجابه، فينشرق إليه من نور وجهه، ويلمع عليه من لمعان جماله، ويشتاق إلى أن يقرب عنه ويصيرَ قريباً منه ويكونَ منه بمرأى ومسمع، لا أقلّ منّته في الحقائق الإنسان إذا غلب عليه التطلّع من وراء حجُب الغيب إلى منتهىٰ الجمال، واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاجَ إليه؛ ويسمّى هذه الحالة والانزعاج شوقاً.

وعن الصادق ﷺ: «المشتاق لا يشتهي طعاماً ولا يلتذّ شراباً، ولا يستطيب رقاداً، ولا يأنس جليساً [حميماً خ]، ولا يأوي داراً، ولا يسكن عمراناً، ولا يلبس ليناً،

---

١. فاطر (٣٥): ٢٨.

ولا يقرّ قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً، راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه، [....] ومثل المشتاق مثل الغريق ليس له همّ إلّا الخلاص وقد نسي كلّ شيء دونه»[1]. وعن النبيّ ﷺ: «إنّ موسىٰ بن عمران في ميعاد ربّه ما أكل وما شرب ولا نام أربعين يوماً شوقاً إلى مكالمة الله»[2] بل نقل أنّه بعد ذلك كان إلى مدّة لا يسمع إلّا كلام الله سبحانه.

قوله ﷺ: (وَأَدْنُوَ مِنْكَ دُنُوَّ الْمُخْلَصِينَ) لا شكّ أنّ من اشتاق إلى شيء جدّ في طلبه ومن جدّ وجد، فالمشتاق إلى قربه ودنوّه تعالى شأنه يطلبه جدّاً، ومن طلبه وجده منه فيدنو [منه] سبحانه دنوّ العبد، وقربه من الله في الحقيقة تخلّقه بأخلاقه تعالى وتخصّصه بصفاته سبحانه وإن لم يكن على حدّ صفاته من الحكمة والعلم والرحمة، وذلك بتطهير السرّ عمّا سوىٰ الله وإزالة أوساخ البشريّة بقدر الطاقة.

وفي القدسي: «ما تقرّب إليّ عبد بمثل أداء ما فرضت عليه»[3] و«من تقرّب منّي شبراً تقرّبت إليه ذراعاً»[4] وقد سبق ما ينفعك هنا فتذكّر.

والإخلاص هو تجريد النيّة عن الشوب وإرادة وجه الله تعالى لا غيره. وورد في حقيقته: أن يقول: ربّي الله، ثمّ تستقم كما أمرت.[5] وعن أمير المؤمنين وملاذ المخلصين ﷺ: «طوبىٰ لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشتغل قلبه بما تراه عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطي غيره»[6] رواه في الحقائق.

ولصاحب الإحياء تحقيق أنيقّ في الإخلاص والرياء، ملخّصه غاية التلخيص:

---

١ و ٢. مصباح الشريعة، باب ٩٨ في الشوق؛ عنه البحار ٦٧: ٢٤/٢٤. باختلاف

٣. الكافي ٢: ٣٥٢ / ٧ و ٨؛ بحارالأنوار ٧٢: ١٥٥/٢٥.

٤. بحارالأنوار ٣: ٣١٣/س ٢٤ و ٨٤: ١٩٠/س ٣.

٥. بحارالأنوار ٣٦: ٨٤، و ٤٠: ١٧٥/٥٦ عن مناقب آل أبي‌طالب: «عن علي ﷺ قال قلت: يا رسول الله أوصني، قال: قل ربّي الله ثمّ استقم.»

٦. الكافي ٢: ١٦/٣.

أنّ كلّ عمل فيه حظّ النفس فهو من الدنيا وإن كان بصورة العبادة، وكلّ عمل فيه خلاف النفس فهو من الآخرة ولو بصورة المعصية، فلا ينفع شيء من الدنيا في نيل الآخرة ولا شيء من الآخرة في نيل الدنيا، بل هما ككفّتي الميزان رجحان كلّ منها خسران الآخر، وأمّا كلّ المشوب فالحقّ أن ينظر إلى قوّة الباعث وضعفه، فإن كان الباعث الأخروي مساوياً للباعث الدنيوي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان الأخروي أقوى فهو له بقدر فضله، وبالعكس بالعكس، وذلك كمن تناول المسخّن والمبرّد معاً[1]؛ فافهم.

قوله﵇: (وأَخَافَكَ مَخَافَةَ الْمُوقِنِينَ) اليقين أن يرى الأشياء كلّها من مسبّب الأسباب، وأن يتيقّن أن لا حول ولا قوّة إلّا بالله، وأنّه لا يصيبه خيرٌ ولا شرٌّ إلّا بإرادة الله، ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط كلّها مسخّرة لا حكم لها، ثُمّ الثقة بضمان الله سبحانه للرزق وأنّ ما قدّر له سيساق إليه، ثمّ أن يغلب على قلبه أنّ ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[2]، ثمّ المعرفة بأنّ الله مطّلع عليه في كلّ حال ومشاهدٌ لهواجس خاطره وخفايا ضميره، فيكون متأدّياً في جميع أحواله وأعماله مع الله سبحانه، فيكون مبالغاً في عمارة باطنه وتطهيره وتنزيهه. هكذا أفاده في الحقائق[3].

والخوف تألّم القلب واحتراقه بسبب توقّع مكروه. والخوف من الله تارة يكون بمعرفة الله ومعرفة صفاته، وتارةً يكون بخيانة من العبد، وتارة يكون بهما جميعاً، وله درجات ومراتب.

ومن علامات الخوف فيضان أثر الحرقة من القلب على البدن والجوارح

---

١. إحياء علوم الدين ٤: ٣٧٩ بيان حقيقة الإخلاص.

٢. زلزال (٩٩): ٧ـ٨.

٣. لم أعثر على الحقائق.

والصفات، أمّا في البدن فبالتحوّل والصفاء والبكاء، وأمّا في الجوارح فبكفّها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات، وأمّا في الصفات فبقمع الشهوات ودفع المرديات، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه، ولا يتفرّغ لغيره لحظةً. وقصص الخائفين وأحوالهم من نبي الله يحيى بن زكريّا ﷺ وغيره مذكورة في مطوّلات الأخلاق. قال حكيمٌ: من خاف شيئاً هرب منه[1] ومن خاف الله هرب إليه[2].

قوله ﷺ: (وَأَجْتَمِعَ فِي جَوَارِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) أعلى درجات الإيمان تنوّرٌ في القلب وانشراحٌ في الصدر، به ينكشف حقيقة الأشياء على ما هو عليه كما مرَّ، وأهل هذه الدرجة هم المؤمنون حقّاً وهم السابقون المقرّبون وهم أعزّ من الكبريت الأحمر.

(اللَّهُمَّ وَمَنْ أَرَادَنِي بِسُوءٍ فَأَرِدْهُ وَمَنْ كَادَنِي) بكيد ومكرٍ (فَكِدْهُ) بالمجازات حتى يشتغل بنفسه ولا يشغلني عنك وعن خدمتك.

(وَاجْعَلْنِي) إلى قوله ﷺ : (لَهِجاً) حريصاً ناطقاً مصرّاً لا يفتر.

قوله ﷺ: (وَقَلْبِي بِحُبِّكَ مُتَيَّماً) أي معقولاً معقوداً بل أسيراً رقّاً مملوكاً.

ويظهر من كلمات بعض الفحول أنّ التيّم فوق الحبّ ودرجةُ العشق، ويكون [المتيّم] صاحب هذه الدرجة. والمتيّم في محبّة الله إن خالط الناس كمنفرد في جماعة ومجتمعٍ في خلوة وغريبٍ في حضره وحاضر في سفره وشاهد في غيبته وغائب في حضوره، وفيهم ورد: «هم قوم صحبوا الدنيا بأبدان أرواحُها معلّقة بالملإ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه»[3].

وفي دعاء عرفة لسيّد الشهداء وسيد الأحباء: «أنت الذي أزلت الأغيار عن

---

١ و ٢. نهج البلاغه، الحكمة ١٤٧، من كلام له ﷺ لكميل بن زياد. وورد في الكافي ٢: ٦٨ عن أبي عبدالله الصادق ﷺ: «من رجا شيئاً عمل له، ومن خاف من شيء هرب منه».

٣. بحار الأنوار ٢٣: ٤٦ / ٩١ عن إكمال الدين ١: ٢٩١ / ٢ الباب السادس والعشرون، باب ما أخبر به أميرالمؤمنين... من وقوع الغيبة بالقائم الثاني عشر.

قلوب أحبّائك حتّى لم يحبّوا سواك ولم يلجؤوا إلى غيرك»[۱] وفي المناجات المنقولة عن السيد السجّاد: «إلهي مَن ذَا الذي ذاقَ حَلاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرام مِنكَ بَدَلاً، وَمَنْ ذَا الذي أَنِسَ بِقُربِكَ فَابتَغَىٰ عَنكَ حِوَلاً، إلهي فَاجْعَلنِي مِمَّن اصْطَفَيْتَه لِقُربِكَ وَوِلايَتِكَ، وَأَخْلَصْتَه لِوُدِّكَ وَمَحَبَّتِكَ، وشَوَّقْتَهُ إلى لِقائِكَ، وَارتَضَيْتَه بِقَضائِكَ، وَمَنَحْتَه بِالنَّظَرِ إلى وَجْهِكَ، وَحَبَوتَهُ بِرِضاكَ، وَأَعَذْتَه مِن هَجْرِكَ وقِلاكَ... وَهَيَّمْتَ قَلْبَهُ لِإرادَتِكَ وَاجْتَبَيْتَه لِمُشَاهَدَتِكَ»[۲].

وقال أيضاً: «يا مَن أَنوارُ قُدْسِهِ لأَبْصارِ مُحِبِّيهِ رائِقَةٌ، وَسُبُحاتُ نُورِ وَجهِهِ لِقُلُوبِ عارِفِيهِ شَائِقَةٌ، يا منتهى [منى خ] قلوبِ المُشتاقينَ، وَياغايَةَ آمالِ المُحِبّينَ، أسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ كُلِّ أمرٍ يُوصِلُ إلى قُربِكَ»[۳]. نعم «إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً»[۴] وإنّ لله شراباً لأوليائه إذا شربوا سكروا الخ.

ولنعم ما قيل:

مـقيّدان تـو از يـاد غـير خـاموشند	به خاطری كه تويی ديگران فـرامـوشند

(وَمُنَّ عَلَيَّ) إلى قوله ﷺ: (بِعِبَادَتِكَ) بل ما خلقتهم إلّا لعبادتك. وحقيقة هٰذه العبادة صيرورة العبد عبداً خالصاً ومفتقراً محضاً لم يبق له جهة أنانية أو نظر الالتفات إلى ما سوى المعبود الحقّ الأوّل، بل فانياً محضاً عن نفسه وعن كلّ شيء سوى الحقّ، مستغرقاً في عبوديّته، قاصراً نظره إلى مطالعة جماله ومشاهدة كماله، كما وقع لسيّد العابدين أمير المؤمنين ﷺ في صلاته، وكما قال مولانا الصادق ﷺ: «ما زلت أكرّر آيةً حتى سمعت من قائلها»[۵]. وفي عالم الظاهر كحال صُوَيحِبات

---

۱. مفاتيح الجنان، دعاء عرفة، ص ۴۵۲.

۲ و ۳. الصحيفة السجادية، الدعاء ۱۹۰.

۴. الإنسان (۷۶)، ۲۸.

۵. وجد مثله في مفتاح الفلاح، ص ۳۷۲؛ ووجده نحوه في فلاح السائل، ص ۱۰۸ و ۱۰۹.

يوسف.[١] وهذه هي غاية الإيجاد وثمرة الخلق، وفيها ورد: «إنّ العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة»[٢]، وفي القدسي: «عبدي أطعني حتّى أجعلك مثلي إذا قلت لشيءٍ كن فيكون»[٣]، وهذه العبوديّة المحضة أفضل من مرتبة الرسالة. ولهذا قُدّمت في التشهّد على الرسالة فيقال: أشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله.

هذا، ويحتمل أن يراد بالعبادة هنا الدعاء كما سمّاه الله عبادة، وجعل تركه استكباراً موجباً لدخول جهنّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدخُلونَ جَهنَّمَ دَاخِرينَ﴾[٤]، بعد أمره تعالى بالدعاء.

(وَأَمَرْتَهُمْ بِدُعَائِكَ وَضَمِنْتَ لَهُمُ الْإِجَابَةَ) بقولك: ﴿ادعُونِي أَستَجِبْ لَكُم﴾[٥]، وقد سلف الكلام في الدعاء والإجابة فتذكّر.

قوله ﷺ: (فَإِلَيكَ) لا إلى غيرك (يَا رَبِّ نَصَبْتُ وَجْهِي وَإِلَيْكَ يَا رَبِّ مَدَدْتُ يَدِي فَبِعِزَّتِكَ اسْتَجِبْ لِي دُعَائِي وَبَلِّغْنِي مُنَايَ) جمع منيةٍ كغرفة وغرَف، وهي ما يتمنّاهُ الإنسان ويشتهيه ويقدر حصوله.

قوله ﷺ: (وَلَا تَقْطَعْ مِنْ فَضْلِكَ رَجَائِي) أي توقّعي لحصول المطالب والمحبوب، كتوقع الحصاد ممّن ألقىٰ بذراً جيّداً في أرض صالحة يصلها الماء.

(وَاكْفِنِي شَرَّ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مِنْ أَعْدَائِي) وجود الجنّ والشيطان والملك ممّا عليه إجماع العقلاء وإطباق الكمّل الفضلاء، ونطق به كلام الله وكلام الأنبياء والأولياء، وحكي مشاهدة الجنّ عن كثير من العقلاء فلا وجه لإنكاره كما لا سبيل إلى إثباته.

قوله ﷺ: (يَا سَرِيعَ الرِّضَا) عن عبادك بقبول اليسير من أعمالهم الحسنة والشكر

---

١. مصغّر صواحب.
٢. مصباح الشريعة، باب ١٠٠ في حقيقة الربوبيّة.
٣. وجد نحوه في عدة الداعي، ص ٣١٠؛ وإرشاد القلوب، ص٧٥.
٤. غافر (٤٠): ٦٠.
٥. غافر (٤٠): ٦٠.

على القليل من أفعالهم المرضيّة.

(اِغْفِرْ لِمَنْ لَا يَمْلِكُ) شيئاً ولا وسيلةً ولا ذريعةً يستوجب بها غفرانك ورضوانك.

قوله ﷺ: (إِلَّا الدُّعَاءَ) والتوبة والإنابة والإقرار بالتقصير والخطيئة، والاعتراف بالنقص والذلّة والمسكنة، وإظهار الضعف والعجز والفقر والفاقة، فحقٌّ على مثلك أن لا تخيّب مثله ولا تردّ دعاءه، وأن تقبل توبته وتعفو خطيئته وتجبر فاقته وترحم مسكنته (فَإِنَّكَ فَعَّالٌ لِمَا تَشَاءُ) وما يقتضيه عدلك وحكمتك.

قوله ﷺ: (يَا مَنِ اسْمُهُ دَوَاءٌ وَذِكْرُهُ شِفَاءٌ) من كلّ داء ومرض وعناء (وَطَاعَتُهُ غِنًى) عن كلّ شيء، فإنّ الطاعة الحقيقيّة يصل بالعبد إلى الفناء في الله والانقطاع عمّا سوى الله، وهذا غاية الغنى؛ من أطاع الله أطاع له كلّ شيء.

(اِرْحَمْ مَنْ رَأْسُ مَالِهِ الرَّجَاءُ) لا وسيلة له ولا سبب ولا عصام إلّا رجاء رحمتك وفضلك. قد سبق أنّ الرجاء إنّما يصدق بعد تحقّق أسباب حصول المرجوّ والمطلوب، وإلّا فالصادق اسم الغرور والحمق، كمن ألقىٰ بذراً في أرض سبخةٍ منقطع عنها الماء وانتظر الحصاد.

(وسِلَاحُهُ الْبُكَاءُ) إذا حدث للإنسان حالة متضادّة لشهوته وطبيعته وإدراك الأمر الغير الملائم، تحرّك الروح إلى الباطن هرباً من المؤذي فيتمدّد الأعصاب نحو الباطن، ويضيق أفضية الدماغ والعصبتين والصدر، وينعصر منافذها، ويحدث شكل البكاء، ويخرج حينئذٍ بالضرورة ما في الدماغ من الرطوبات الرقيقة الحادثة من الأبخرة الصاعدة إليه من القلب عند تسخّنه بتوجّه الدم والروح إليه. وإنّما تخرج تلك الرطوبات بالدمع من العين وبالمخاط من الأنف لقربهما من الدماغ واتّصالهما بدور القحف، كما بيّن في التشريح.

(يَا سَابِغَ النِّعَمِ) واسعَها وكاملها وتامها.

(يَا دَافِعَ النِّقَمِ يَا نُورَ الْمُسْتَوْحِشِينَ) من الخلق المستأنسين بك (فِي الظُّلَمِ) الليالي والخلوات.

(يَا عَالِماً لَا يُعَلَّمُ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ) الصلاة: العطف والرحمة، وآل محمّد: أهل بيته الطاهرة وذريّته الطيبة، الذين ما من ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا صدّيق ولا شهيد ولا عالم ولا جاهل ولا دنيّ ولا فاضل ولا مؤمن صالح ولا فاجرٌ طالح ولا جبّار عنيد ولا شيطان مريد ولا خلق فيما بين ذلك شهيد، إلّا عرّفه الله جلالة أمرهم وكبر شأنهم وتمام نورهم وصدق مقاعدهم.

والنزاع في أنّ فائدة الصلاة عليهم يعود إليهم أم إلى المصلّي، بالنظر إلى أنّ الله قد أعطاهم من علوّ الدرجة وارتفاع المنزلة والشرف والكمال والعزّة والجلال ما لا يتصوّر لممكن، ولا يمكن فوق ذلك معروف.

وقد رفعه وجمع بين القولين الحكيم السبزواري بقوله: «لمّا كانت أمّة المرحومة كأوراق وأغصان من شجر طوبىٰ وُجودِهم المقدّس، كان العود الى المصلّي عوداً إليهم وبالعكس، إذ الأوراق من صقع الشجر فضلاً عن الأغصان». انتهى.

ويمكن الجمع بوجه آخر هو أنّهم سبب وجود الناس طرّاً ومقوّمهم، فيكونون أنفسهم كما أُومي إليه سابقاً، ولهذه الدرجة والإحاطة حيث يستصرخ الأنبياء يوم القيامة بقولهم: «وا نفسي»، ويقول هو ﷺ: «وا أمّتي»[1].

قوله ﷺ: (وَافْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ) من الفضل والعفو والرحمة (وَصَلَّى اللهُ... الخ) ختم الدعاء بالصلاة على مستحقّه ليكون سبباً لنجاح طلبته وموجباً لقضاء حاجته، كما ورد عنهم: «إنّ كلّ دعاء محجوبٌ عن السماء حتّى يصلّىٰ على محمّد وآله»[2].

قد تمّ ما أفاده وعلّقه ـ عليه الرحمة ـ على دعائه ﷺ وأسقطنا منه نبذاً يسيراً ممّا هو قليل الفائدة حذراً من الإطناب، والله الموفّق .

۱. مرت الإشارة إلى مصدره (سنن الترمذي ۴: ۶۲۲ باب ۱۰).
۲. بحار الأنوار ۹۱: ۳۵/۵۷ عن ثواب الأعمال، وص ۶۵ عن جامع الأخبار.